الإيمان ومستلزماته

الإيمان ومستلزماته

الإمام الخامنئي (حفظه الله)

إعداد وتدوين: مركز صهبا

حقوق الطبع محفوظة ©

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-028-9

[١٤٣٦ هـ. - ٢٠١٥ م.]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

مقدمة ٩

الجلسة الأولى: الإيمان (١) ١٣

الجلسة الثانية: الإيمان (٢) ٢٧

الجلسة الثالثة: الإيمان الواعي ٤٣

الجلسة الرابعة: الإيمان وليد الالتزامات العمليّة ومصاحبها ٥٩

الجلسة الخامسة: الإيمان والالتزام بالمسؤوليّات ٧٥

الجلسة السادسة: البشائر ٩٥

الجلسة السابعة: البشارات ١١٣

مقدمة

إنّ الحديث عن القرآن، هو حديثٌ عن كتابٍ جامع لحياة الإنسان، إنسان اللانهاية، الإنسان المتكامل، الذي لا حدّ لتكامله.

هو حديثٌ عن الهادي والمعلّم، القادر على رعايته على مرّ العصور، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

إنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى، واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والعمى والضلال. اسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلقه إنّه ما توجّه العباد إلى الله بمثله، واعلموا أنّه شافع مشفّع، وقائل مصدّق وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن مَحِلَ به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة ألا إنّ كلّ حارثٍ مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهوائكم»[1].

إنّ دور **القرآن الكريم** لا يقتصر على هداية الإنسان إلى طريق النجاة في حياة الآخرة، بل هي ترتبط بكافّة جوانب حياة الإنسان. كما يكتسب المجتمع نتيجة الأنس المطرد **بالقرآن الكريم** متانة داخليّة. وهذه المتانة الداخليّة هي التي تمنح المجتمعات الاقتدار في الحركة والقدرة على تخطّي التحدّيات، فيخرج من ظلمات الخرافات والضلال والخوف والأوهام ويهديه نحو معرفة الخالق، وهذا ما يمثّل في الوقت الراهن حاجة أساسيّة

(١) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٢، الصفحة ٩٢.

للعالم الإسلاميّ لمواجهة التحدّيات[٢].

كما أنّ هداية الإنسان نحو الخير والكمال يبدأ من محوريّة القلب حيث موطن التصديق بما يستدلّ عليه عقله.

يقول الإمام الخميني (قدس سرّه):

> إنّ الإيمان عمل قلبيّ، وما لم يكن ذلك فليس هناك إيمان. فعلى الشخص الذي علم بشيءٍ عن طريق الدليل العقليّ أو ضروريّات الأديان، أن يسلّم لذلك قلبه أيضًا، ولأن يؤدّي العمل القلبيّ الذي هو نحو من التسليم والخضوع، ونوع من التقبّل والاستسلام ـ عليه أن يؤدي ذلك ـ لكي يصبح مؤمنًا. وكمال الإيمان هو الاطمئنان. فإذا قوي نور الإيمان تبعه حصول الاطمئنان في القلب[٣].

عطفًا على ما سبق، فإنّ الإيمان نورٌ في القلب، وهو فعل إنسانيّ إراديّ اختياريّ؛ وهذا يعني أنّ الإنسان هو محور العمليّة الإيمانيّة والاعتقاديّة. هو حالة وجوديّة، وجدانيّة، قلبيّة نورانيّة اطمئنانيّة، محلّها القلب، يمكن أن تزيد أو تنقص، بحسب فعل الفرد، وعندما تغمر القلب تغيّر مجرى حياة الإنسان وترسّخ اعتقاداته بالله تعالى. قال أبو عبد الله (ع): «إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحديد، إنّ الحديد إذا دخل النار لان، وإنّ المؤمن لو قُتل ونشر ثمّ قُتل ونشر، لم يتغيّر قلبه»[٤].

وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يعني نوعًا من الارتباط والتعلّق الوثيق بالذات الإلهيّة المقدّسة. وبالتالي، فالعبادة النابعة من الاعتقاد والتسليم والرضا تنقل الإنسان من حالة إلى حالة أخرى كما عبّر **القرآن الكريم** من الظلمات إلى النور، فتولد عند المرء حالة من القناعة الراسخة الثابتة التي من أجلها يمكن أن يبذل حياته وماله وولده.

---

(٢) خطاب الإمام الخامنئي (حفظه الله) بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك ٢٩-٦-٢٠١٤.

(٣) الإمام الخميني (قده)، **الأربعون حديثًا**، تعريب محمّد الغروي (مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، ١٩٩١م)، الصفحة ٤٧.

(٤) أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، **المحاسن** (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧٠ ه. ش)، الجزء ١، الصفحة ٢٥١.

إذًا، فبين الإيمان والعمل نوع من الملازمة؛ كلّما ازداد الإيمان كثُر العمل، وكلّما ازداد العمل تعمّق الإيمان.

بعد ذكر أهميّة **القرآن الكريم** والسعي لتفسيره وتحصيل الفائدة من آياته وتوجيهاته، وأنّ الإيمان أمر مهمّ توقد في القلب شعلة السعي الحثيث نحو ما يريده الله تعالى، يأتي هذا الكتاب ضمن إطار توصية الإمام الخامنئي (حفظه الله) لتفسير القرآن واستخلاص العبر منه.

وهو جزء من كتاب أكبر أعدّه ونشره مركز صهبا في إيران. طرح فيه الإمام الخامنئي (حفظه الله) في جلسات تفسير قرآنيّة في شهر رمضان المبارك عام ١٣٥٣ ه. ش في مدينة مشهد المقدّسة كليّات المطالب في الفكر الإسلاميّ من الإيمان والتوحيد والنبوّة والولاية.

أخذ معهد المعارف الحكميّة على عاتقه ترجمته وإعادة نشره مجزّءًا كلّ قسم على حدة لأهميّة مطالبه العلميّة المؤسّسة للأصول العقائديّة بشكلٍ ميسّر.

وقد ارتأينا اختيار عنوان «الإيمان ومستلزماته» لهذا الجزء، وهو عبارة عن سبع جلسات. عمد الإمام الخامنئي (حفظه الله) من خلال تفسير الآيات المرتبطة بالموضوع إلى تعريف الإيمان ومعنى العبوديّة والطاعة لله وشروطها، ومتى يكون الإنسان مورد رحمته تعالى. كذا، معنى المغفرة والغفران. وذكر علائم التقوى، والخصال التي تؤهّل الفرد أن يكون مؤمنًا.

كما أشار إلى نوعين من الإيمان، وأنّ الإيمان الواعي هو المطلوب مقابل الإيمان العصبيّ والتقليديّ، وبالتالي هو وليد التزامات عمليّة من صلاة وصوم وزكاة وكذا هجرة الأنا والديار الكافرة. وقد يكلّف هذا الإيمان المؤمن مسؤوليّات من جهاد ورفض للظلم وبذل للنفس والمال وغير ذلك.

ثمّ تعرّض لبحث قيمة الإيمان ونتيجته والبشائر التي أعدّها الله

للمؤمنين، والأمور التي توصل الإنسان إلى الشعور بالرضا والسعادة الشاملة، وأهمّ هذه البشارات هي: الهداية والنور والطمأنينة والسكينة.

هذا عرضٌ موجز لجزء الكتاب الكبير الذي سيتمّ نشره على أقسام لتحصيل الفائدة المرجوّة منه، ولكي يأخذ حقّه وقدره من الاهتمام. والعبرة في كلّ ما ذُكر هو جعل الإيمان بالله تعالى أصلًا محوريًّا في سلوكنا في الحياة الدنيا، فلا يبقى الإيمان محلّه القلب فحسب، بل يصبح الدافع من أجل التحرّك في الحياة كلّها على أسسه وما يقتضيه هذا الإيمان.

علّ ذلك الإيمان يغمر قلوبنا فتحيل لحظة صدق مع أنفسنا وخالقنا حياتنا إلى عبادة واعية لله تعالى، وأرواحنا نقيّة تستحقّ القرب والزلفى من الباري. ويكون الإيمان عنصرًا أساس من عناصر التماسك الاجتماعيّ؛ يدفع الأفراد نحو التعاون والتفاهم ويبعدهم عن التنازع والتخاصم.

سكينة أبو حمدان

الجلسة الأولى: الإيمان (١)

الخميس، ٢ شهر رمضان، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

أربع سنوات قبل انتصار الثورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

(١) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٣٣ و ١٣٤.

لقد اختار بعض المسيحيّين الرهبنة ظنًّا منهم أنّهم بذلك لن يتلوّثوا بالمعاصي، فلجأوا إلى المغارات والجبال والأكواخ. يصف الله تعالى هذه الحالة في كتابه العزيز بالبدعة منهم فيقول: ﴿ وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ ﴾[٢]، تحت عنوان رهبانيّة[٣] ابتكروها من أنفسهم لم يفرضها عليهم الله. أمّا العالم الإسلاميّ، فلا رهبنة لديه ولا عزلة ولا فرار؛ فهو يسعى لإنقاذ المذنب من الغرق. وكذلك المسلم الواعي - بل أيّ إنسانٍ مسلم - لأنّ كون الإنسان مسلمًا ومسؤولًا أمرين متلازمين؛ فهما كاللازم والملزوم، يسعى لإنقاذ الغريق وشفاء المريض وهداية الضالّ، وهذا كلّه لا يتحقّق مع الفرار ولا ينسجم معه. فهو يؤمّن التقوى لنفسه، لأنّه من أهل التقوى، أي إنّه يحضّر العدّة اللازمة ويتحصّن بالدرع الواقي مقابل المعاصي فيدخل إلى منطقة الذنوب من أجل إنقاذ العصاة؛ وباختصار، هذه هي التقوى.

وعندما يتّضح هذا المعنى للتقوى، فهل ستكون عندئذٍ مقدّمةً ووسيلةً لتحقيق الانتصار أم لا؟ سوف ترون أنّ الأمر سيصبح في غاية السهولة، لأنّ التقوى هي وسيلة للانتصار. فذاك الذي يريد أن يتغلّب على المرض الفلانيّ في هذه المنطقة أو تلك، لو أنّه كان يخاف دائمًا من أن يُصاب بهذا الميكروب أو ينتقل إلى جسمه، فكيف يمكنه أن ينقذ مَن أُصيب به؟! عليه أن يكون حذرًا وملتفتًا لنفسه وينتبه إليها، ثمّ بعد ذلك يدخل إلى المنطقة الخطرة وينجي الآخرين. عندها سوف يحصل على التوفيق والنصر، وسوف يتمكّن من القيام بهذا العمل بسهولة؛ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤].

كذلك ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٥]؛ إنّ طاعة الله لا تختلف عن طاعة النبيّ والرسول. والسؤال

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٢٧.

(٣) الخوف الدائم، الرهبانيّة: العزلة وترك الدنيا.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٠.

(٥) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٣١ و١٣٢.

هو حول المناسبة التي ذكر الله تعالى فيها طاعته وطاعة النبيّ معًا؟ وهل في الأمر زيادة أو إضافة في ذكر أحدهما؟ كلّا. فلو أنّه تعالى قال ﴿أطيعوا الله﴾ فقط، ولم يذكر الرسول كمصداقٍ ونموذجٍ ولم يأمر بطاعته فمن الممكن لأولئك الذين يقفون مقابل النبيّ أن يدّعوا ويقولوا إنّنا نطيع الله. فمجال الادّعاء ونطاقه واسعٌ، حيث يمكن للجميع أن يدّعوا الدين والإيمان والتقوى بصورة علنيّة. إنّ كلّ إنسان يمكنه أن يدّعي أنّه عبدٌ لله ومطيعٌ له.

في زمن النبيّ، كان الرسول يعلن العبوديّة والطاعة لله، وكان أولئك الذين يقفون في الجبهة المقابلة له ويحاربونه ويقومون بكلّ تلك المخالفات من قادة وكبار ورهبانٍ مسيحيّون وأحبار يهود أيضًا يدّعون ذلك، ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ﴾[٦]، بل إنّ ذلك كان يبدو وكأنّه أعلى درجةَ من ادّعاء النبيّ. فالنبيّ كان يقول إنّني عبد الله، وهم يقولون نحن أبناء الله. وكانوا يظنّون أنّ طاعة الله منحصرةٌ بهم، أو بعبارةٍ أخرى نقول: إنّ هذا ما كانوا يظنّونه حول أنفسهم. فإنّ بعض الذين يعصون الله يتظاهرون بالطاعة، فهل أنّ هذا صحيحٌ أم لا؟ بعض هؤلاء عندما يخلون إلى أنفسهم يمكن أن يكتشفوا مدى سواد كتاب أعمالهم ويعلمون أنّ ما يقولونه ليس سوى الكذب؛ لكنّهم يتظاهرون أمام الناس بشكلٍ آخر ويقولون إنّهم عبيدٌ مطيعون له تعالى وعبّادٌ للرب. فهؤلاء يجب أن يُشخَّصوا ويُميَّزوا عمّن يعبد الله حقًّا. لذا، أضاف الله تعالى شرط طاعة الرسول في مقام بيان الإطاعة ووجوبها على المؤمنين، ﴿وأطيعوا اللّه والرسول﴾.

فلو لم يُذكر الرسول لكان أعداؤه يقولون نحن نطيع الله؛ لهذا، ينبغي التحديد والتدقيق بمعنى طاعة الله. أولئك الذين يعدّون أنفسهم عبيدًا لله وهم ليسوا عبيدًا للأوامر الصادرة عن القانون الإلهيّ ولا يعملون بهذا القانون، فإنّهم لا يلتزمون بلوازم هذه العبوديّة، فكيف لهم أن يقولوا إنّنا عبيدٌ لله؟! ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

---

(٦) سورة **المائدة**، الآية ١٨.

ماذا تعني رحمة الله؟ وماذا يعني أن يكون الإنسان مورد رحمته تعالى؟ هنا، ينبغي أن تقارنوا بين بيان **القرآن** وتصوّرنا العامّيّ. نحن نقول لو أنّنا كنّا من أهل الذنوب وخالفنا الله ولم نعمل بالواجبات والالتزامات والتكاليف ولم نتراجع عن الموارد الممنوعة من قبل الربّ، فإنّ لدينا أملًا واحدًا، ما هو هذا الأمل؟ إنّه رحمة الله، وهو تعالى يعاملنا برحمته وينزلها علينا. هذا هو ادّعاؤنا وكلامنا، بل هو الكلام السائد في مجتمعنا وبين الناس. فنحن نعتبر رحمة الله لمثل هذه الموارد، أي لمَن عمل وعصى، ولمَن تجاوز المنطقة الممنوعة واعتدى ولم يراعِ المسؤوليّة والالتزام الإلهيّين. ندّعي أنّ الرحمة لمثل هذه الحالات؛ اللهَ يرحمنا، ونعتبر أنّ رحمة الله هي مقابل العمل أو البديل عنه. أمّا آية **القرآن** فإنّها تعلن العكس، تقول لنا اعملوا وأطيعوا لعلّ رحمة الله تشملكم. إنّ رحمة الله تنزل عندما يقوم الأفراد بتحمّل مسؤوليّتهم، فيرحم الله العباد الذين أطاعوا وأدّوا ما عليهم من مسؤوليّات وتكاليف. فقد تجد أكثر من ٧٠٠ مليون مسلم يجلسون وينتظرون غمائم رحمة الربّ كي تهطل عليهم، في حين أنّهم يفتحون الطرق ليأتي ناهبو الأعراض والغزاة المعتدون على الدين فينهبوا كلّ شيء، ينتظرون رحمة الله!؟ قولوا إذن فلنقعد هنا ولا نتحرّك!

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ماذا تعني طاعة الله؟ وبماذا ترتبط هذه الطاعة؟ إنّ ذلك يرتبط بتحمّل جميع التكاليف والحجج الإلهيّة والقيام بما ألزمنا به وكُلّفناه. وبمنطق الآية الشريفة، فإنّ المؤمنين هم أولئك الذين إذا حصل بينهم أيّ نوع من الشجار، فإنّهم يرجعون إلى النبيّ حتّى إذا قضى وحكم بينهم لم يجدوا أيّ نوع من الحرج في أنفسهم ولم يعترِ قلوبهم ونفوسهم أيّ نوع من غبار التكدّر بل سلّموا بشكل تامّ ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٧]. هكذا يكون

(٧) سورة **النساء**، الآية ٦٥.

المؤمن الواقعيّ، فإذا حصل هذا الأمر في أمّةٍ ما أو جماعة التزمت بأمر الله، عندها سوف تكون مشمولةً برحمة الله ولطفه المطلق. عندها، تصل الأمّة إلى عزّتها وسموّها وتكاملها الإنسانيّ، فتتحطّم الأغلال والقيود التي كبّلتها، وستكون مشمولةً بالرحمة الإلهيّة؛ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٨]، هذا هو مضمار السباق وميدان التقدّم والمسَارعةَ. فسارِعوا وسابقوا إلى المغفرة التي تنزل من الربّ وإلى الجنّة التي تحيط بالسماوات والأرض والتي أعدّها الله تعالى لأهل التقوى. وفي هذا المجال، ذُكر للتقوى علائم ونتائج سوف يتمّ ذكرها بصورةٍ متتالية.

فيا أيّها الإنسان الذي أصبحتَ مستعدًّا للمسابقة من أجل شبرٍ من الأرض، ومن أجل مقدارٍ من الماء والطين في منطقةٍ معيّنة من هذه الأرض، وجاهزًا لاستخدام كلّ قواك وطاقاتك لتتمكّن من الحصول على تلك الثروة أو ذلك المال في المزاد المتعلّق بتلك الأرض، أو الحصول على تلك الدكّان، أو امتلاك تلك الزاوية من الأرض، أو إدارة تلك السكّة الموجودة في المنطقة الفلانيّة من العالم، ومن أجل الحصول على ما يمكنّك من الامتيازات المادّيّة، أصبحتَ مستعدًّا من أجل كلّ تلك الأمور للمسابقة والمسارعة والتفوّق على الآخرين، حتّى لو كان في ذلك الدوس على الشرف والفضيلة.

أيّها الإنسان! لا يُقال لك لا تسرع، ولا يُقال لك نم في بيتك ولا تستخدم طاقاتك. فذاك الذي يقول لك مثل هذا الكلام باسم الدين كاذب وهو لا يعلم. فالدين لا يقول لك عطّل طاقاتك، بل سارع مهما أمكن وسابق بأسرع ما يمكن، لكن بأيّ اتّجاه؟ إلى ذلك الشيء الذي يليق بك، لا إلى شبرٍ من الماء والطين، ولا إلى ذلك المبلغ الذي لا يساوي شيئًا، ولا إلى تلك الحياة

(٨) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٣.

المادّيّة في الدنيا والتي مهما كانت فإنّها قليلةٌ جدًّا ولا تساوي شيئًا بالنسبة لك.

أيّها الإنسان الكبير! سارع إلى ذلك الشيء الذي يليق بعظمتك - حيث أنّ الإنسان هو أرقى الموجودات في هذا العالم، وإنّ أعظم ما في الوجود بعد الله هو في هذا الكيان الصغير والمحدود -. فسارع وسابق؛ ولكن إلى أيّ شيء؟ ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، سارع إلى المغفرة الإلهيّة وإلى تلك الجنّة التي تكون السماوات في مقابلها صغيرة، وتكون الأرض أمامها قليلة. فماذا يعني ذلك؟ التفتوا جيّدًا إلى العبارات القرآنيّة لتفهموها جيّدًا. إنّ **القرآن** يقول إذا كنت تريد أن تصرف همّتك إلى شيءٍ ما، فإنّ السماء والأرض ليست بشيء بالنسبة لك، بل اجعل همّتك منصرفةً إلى ما هو أعلى منها.

أيّها الإنسان الكبير! إنّ المغفرة هي ما يهمّك، لأنّها أهمّ من أيّ شيء، وما يترتّب بعد المغفرة من آثار قيمتها وعظمتها أعلى من السماوات والأرض.

ماذا تعني المغفرة؟ لقد شاهدنا بأنفسنا وجرّبنا. وقلنا لذلك السيّد معذرةً. وهو يبادلنا بلطفٍ وإكبار، أو بخلقٍ حسن ووداعة قائلًا: حسنٌ، لقد تجاوزنا عن هذا الأمر. لقد قام فلانٌ بتلك الجناية عن غير عمد، وها هو يتمسّك بصاحب الحقّ وبكلّ التماس، يطلب منه العفو والصفح والتلطّف، وها هو صاحب الحقّ يقول: حسنٌ جدًّا، عفوت عنك. وفي تلك الإدارة الحكوميّة، قُدِّم لك المبلغ الفلانيّ ، لكن وفق أيّ حساب؟ عن صحّة أو عن خطأ؟ وأنت كنت قد ذهبت لتقدّم فائق الاحترام وتملّقت وتحدّثت ببعض العبارات وجلبت معك فلانًا أو رسالةً أو توصيةً أو اتّصالًا. وقيل لك: حسنٌ جدًّا، لقد صفحنا عنك؛ فلنتخيّل أنّ الغفران الإلهيّ يشبه مثل هذه الأنواع من الصفح والعفو. فذاك الذي ظلم وجنى وعصى وأفسد في الأرض وعاث فيها فسادًا، يستحقّ العذاب الإلهيّ، ثمّ بعد ذلك، وفي يوم

القيامة، وبسبب تلك الدمعة التي ذرفها أو توجّهه وتوسّله، فإنّ الله يقول: قد تجاوزنا عن خطاياك وعفونا عنك!! فهل هذه هي المغفرة الإلهيّة؟ وهل هذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة﴾؟ كلا.

لقد تحدّثتُ حول معنى الغفران كثيرًا وأكرّر - علّكم أيّها الأخوة ترجعون إلى ذاكرتكم - فقد كنتم متواجدين في أغلب جلسات أبحاثنا، لتستخرجوا من خفاياها وزواياها ما قلناه. إنّ الغفران يعني التئام وتعبئة الفراغ. فعندما يكون جسمكم مجروحًا أو مصابًا في جزء منه بجرح عميق، وعندما تتمزّق طبقة من اللحم ويعطوكم مرهمًا أو دواءً وتتناولون بعض المغذّيات أو الفيتامينات من أجل أن ينمو ما تمزّق ويُداوى الجرح ويلتئم ويعود اللحم إلى سابق عهده، عندها تعود أجهزة بدنكم للعمل. هذا الالتئام هو الذي يشبه الغفران، فهل التفتم إلى معناه؟

لو كانت أرواحكم تشبه جراح ذلك الجسم، فإنّ كلّ معصية ترتكبونها تخدش روحكم وتحدث فيها جرحًا. فلماذا نعبّر عن المعصية بالضربة الموجّهة إلى الروح؟ ذلك بسبب أنّ الروح يجب أن تتعالى وترتقي. والمعصية هي الشيء الذي يمنع روح الإنسان من التعالي والتكامل الذي ينبغي أن تصل إليه بحسبها. وفي مقام التمثيل والتشبيه، يمكن التعبير عن المعصية بذلك الجرح والشقّ الذي يحدث في هيكل الروح، فإذا ارتُكبت المعصية وقعت تلك النقيصة. فإذا استحللتم مال الناس بالحرام - لا سمح الله - أو شربتم الخمر أو أكلتم الربا أو اقترفتم الزنا أو الكذب أو الافتراء، فإنّ كلّ واحدة من هذه الأمور ستوجد شقًّا وجرحًا في روحكم وباطنكم، ومثل هذا يؤدّي إلى النقصان ويبعد عن الكمال الذي هو غاية الآمال. فيجب السعي إلى غفران هذه الذنوب.

فالغفران إذًا عبارةٌ عن تعبئة هذا الفراغ أو الخلاء وجبران ذلك النقص الروحيّ والتئام ذلك الجرح النفسيّ وتكميل تلك النقيصة التي حصلت في الروح. فكيف يحصل ذلك؟ وكيف يتمّ إزالة تلك النقيصة التي

أوجدتها المعصية؟ إنّ كلّ ذلك يحصل من خلال الجبران. فذاك الذي أهبط روحه من أوج الإنسانيّة والتكامل ومن نقطة العروج الإنسانيّ درجةً ما وأبعدها عنها بمعصيته، فإنّ الغفران [بالنسبة له] يعني جبران ذلك التراجع من أجل أن يستكمل ارتقاءه مرّةً أخرى. أضرب مثالًا آخر: لو أنّكم ركبتم السيّارة وأردتم عبور خمسين كيلومترًا، فإنّ هذه السيّارة لو توقّفت أثناء الطريق، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى تأخّركم، وإنّ جبران هذا التأخّر يستلزم أن تتحرّكوا بصورة أسرع من السابق وتقلّلوا من مقدار الراحة أو تصرفوا النظر عنها لكي تصلوا إلى الهدف في الوقت المحدّد. أمّا أن نتوقّف ونقول إنّني يا ربّ قد أخطأت، أو أن نجلس في المقهى لمدّة ساعة ونتأخّر في التحرّك، فإنّ هذا لا يحلّ المشكلة. لقد حصل الخطأ، فعليك أن تتحرّك بسرعة وتسابق من أجل أن تجبر هذا التوقّف والتأخير الذي حصل لمدّة ساعة؛ هكذا هي المغفرة الفعليّة.

والله تعالى لا يحرم مرتكب الذنب من المغفرة مهما فعل من عمل صالح، سبحانه لا يحقد، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّار﴾؛ وإنّي لست حقودًا بل أغفر كثيرًا. فنحن حاضرون لغضّ النظر عن أخطائك فيما لو كانت تُجبر. ولا نقول بما أنّك أيّها الإنسان قد أخطأت يومًا فإنّك لو جاهدت مقابله مئات المرّات فلن نعترف بها أبدًا، كلّا، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّار﴾، وأنا أجبر النقص وأسدّ الفراغ وأدمل الجراح، ولكن لمَن؟ ﴿لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا ثُمَّ اهْتَدى﴾، إنّي أغفر لمن تاب، فماذا تعني التوبة؟ إنّها تعني الرجوع، فعندما ينحرف الإنسان عن طريق التكامل، فإنّ الله تعالى يمكن أن يغفر له في حال أنّه رجع إلى ذلك الطريق مجدّدًا. ومعنى الرجوع يستتبع تقوية الإيمان والعمل الصالح، فلا ينبغي الغفلة عن العمل والاشتغال بالقيل والقال وإرضاء النفس وتطييب خاطرها.

بناءً عليه، فإنّ المغفرة تعني التئام تلك الجراح التي شقّت روح الإنسان، وبهذه الطريقة يمكن لهذا الإنسان أن يصل إلى الكمال. ومثل هذا يستحّق

أن يسعى الإنسان في طريقه ويسابق ويسارع. فالمغفرة مهمّةٌ جدًّا. وهي ليست بمعنى أنّ يتلطّف الله تعالى بشخص بطريقة عبثيّة وبدون أن يكون قد سعى على طريق هذا اللطف الإلهيّ، ﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٩]. والجملة المتداولة: يا فلان إنّك من أهل الجنّة وسوف تذهب إليها لو سُمح لك إن شاء الله، فإنّ هذا الكلام في محلّه تمامًا. فنحن جميعًا نتمنّى الجنّة ونطلبها في كلّ أدعيتنا. وفي بعض الأحيان، لا نقنع بطلبها لوحدها، بل نذكر جميع مختصّاتها: من حور العين، ومن أطعمتها الطيّبة، ولحم طيرها، وإلى غير ذلك، لكنّ الله تعالى يقول إنّ هذه الجنّة قد أُعدّت لأهل التقوى، وهذه المائدة قد بُسطت لجماعة خاصّة؛ هؤلاء ينبغي أن يردوها ويجلسوا حولها. فمن هم هؤلاء؟ إنّهم أهلُ التّقوى.

فمن هم أهل التقوى الذين أُعدّت لهم؟

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، أحد شروط التقوى هو الإنفاق، وهو يختلف عن الصرف. وقد تحدّثنا عن الإنفاق عدّة مرّات لحدّ الآن، ولا عيب في التكرار. فهي مهما تكرّرت عندكم، فإنّها تبقى أكثر في القلب وما أحسن ذلك! هناك مَن يصرف المال وآخر ينفقه إلّا أنّ الإنفاق صرفٌ ولكن ليس أيّ نوع من الصرف. فالإنفاق هو ذلك الصرف الذي يحصل به تعبئة فراغ وتأمينٌ احتياج حقيقيّ. فأين هم أولئك الذين يصرفون الملايين وبحسب الظاهر يكون الأمر في الأعمال الحسنة، والذين يأتي القرآن على ذكرهم بأنّهم أخسر الناس لأنّ عملهم لم يكن إنفاقًا؟ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٠]، فما صرفوه من أموالٍ وكلّ تلك الزخارف التي علّقوها على أجساد بعض الجائعين وتلك المخارج الكثيرة والكاذبة لم تكن

(٩) سورة **آل عمران**، الصفحة ١٣٣.

(١٠) سورة **الكهف**، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.

إنفاقًا، لماذا؟ لأنّها لم تملأ فراغًا.

أيّها السيّد! لو أنّ هذه القروش القليلة التي قدّمتها لمَن يوجد في جيبه المئات مثلها ويمكنه أن يؤمّن المئات الأخرى، فإنّ هذا ليس إنفاقًا، ولو أنّك أعطيتها لمن يبحث عنها من أجل أن يشتري خبزًا ويملأ معدته الفارغة، فهذا هو الإنفاق. بالطبع، لم أرد بهذه الجملة أن أقول للسادة أن يذهبوا الآن مباشرةً ويعطوا هذه القروش القليلة للجوعى والمتسوّلين من أجل أن يملأون معدتهم. كلّا، ففي بعض الأحيان يكون ملء معدة الجائع بعيدًا عن الإنفاق، وفي بعض الشروط يكون كذلك. في تلك الظروف التي يكون فيها الفقر والجوع مثل تلك النبتة التي تنمو على الأرض من غير هوادة، فإنّ ملء بطون الجوعى يشبه قصّ جذع تلك النبتة التي تنمو فوق العلف. فكم هي قيمة علف هذه الأعشاب في الصحراء؟! ففي النهاية، يبدو للناظر أنّ هناك عشبةٌ معشعشة قد نقُصت ولكن كم يكون هذا العمل أساسيًّا؟ كم هو مهمٌّ مثل هذا العمل؟ إنّه تافهٌ جدًّا ولا شيء.

بناءً عليه، إنّ الإنفاق هو ذلك الأمر الذي يملأ الفراغ ويلبّي احتياجًا معيّنًا. ذلك الشعب الذي يحتاج اليوم إلى شيءٍ مثل الماء والهواء، لو أنّه أُعطي غير ذلك الشيء الناقص فإنّك لا تكون قد أنفقت، بل إنّك تكون قد قمت بإعطاء المال حرامًا. لذلك إنّ الإنفاق ليس عمل أيّ أحد، بل هو عمل الأذكياء، الذين يدركون الفراغات والاحتياجات ومستعدّون لتعبئتها وملئها، فالإنفاق مهمٌّ جدًّا، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، هذا هو أحد علائم أهل التّقوى.

﴿وَالكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، ماذا يعني كظم الغيظ؟ إنّه يعني عدم التصرّف وفق المشاعر، بل على أساس العقل. وأحيانًا يكون العقل منسجمًا مع الغضب، أفلا ترون أنّ الله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾[11]، فعندما نتحدّث عن كظم الغيظ لا ينبغي أن

(١١) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

تتصوّروا أنّنا نريد أن نقول إنّنا لا نغضب على أولئك الذين ينبغي أن نغضب عليهم كشعبٍ أو فرد أو مجتمع. كلّا، فالقرآن لا يقول أخمِدوا هذا الغيظ، بل يقول أن لا تتصرّفوا على أساسه. فالكاظمين الغيظ ليسوا ممّن ينسى، فعندما يكظم الإنسان غيظه يمكنه أن يقوم بما ينبغي على أساس العقل والإدراك.

﴿ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾، وعن أخطائهم وذنوبهم وزلّاتهم، ولا ينبغي أن نعفو عن ذلك الذَنب الذي لم يكن زلّةً، أو أن نغضّ النظر عن ذاك العصيان الذي حصل بالتعمّد والعناد، لكنّ الزلّات والتقصيرات التي تكثر من عامّة الناس تقبل العفو والتجاوز، ﴿ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومن العلائم الأخرى لأهل التقوى، ﴿ وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾[١٢]، أولئكَ الذين يرتكَبون الذنوب الكبيرة أو يظلمون أنفسهم، فَإنّهمَ يتذكّرون الله مباشرةً ولا يستغرقون في الغفلة. هناك آيةٌ عجيبةٌ في القرآن في مجال التذكّر، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا ﴾[١٣]. ويكون الشيطان بمَعناه الواسع إذَا أحاط بهم منَ أجل إضلَالهم وإخراجهم عن الصراط المستقيم وإيقاعهم في النسيان ذكروا الله مباشرةً. فهكذا هو ذكر الله، هو حربةٌ في أيدينا ضدّ الشياطين، وهو حبلٌ من الله في أيدينا من أجل النجاة من الورطة التي يريد أعداؤنا المتيقّظون أن يوقعونا فيها. إنّ ذكر الله أمرٌ مهمٌّ جدًّا وأساسيّ. ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾، إنّهم يبحثون عمّا يدمل ما اجترحوه، لكنّ هذا لا يمكن أن يتحقّقَ بدون إعانةٍ من الله، ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[١٤].

السعَي منّا والقبول من الله. فلا ينبغي أن نحذف السعي من سجلّنا،

---

(١٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٥.

(١٣) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠١.

(١٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٥.

لا يحقّ لنا ذلك، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون * أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، فهؤلاء الذين لا يتوقّفون عن السعي يستغفرون لذنوبهم ولا يصرّون عليها ولا يصرّون على البقاء على طريق الخطأ والمعصية، فمثل هؤلاء يكون أجرهم المغفرة من الله ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدينَ فيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلينَ﴾، وهنا أيضًا يقول الله تعالى إنّه أجر العاملين، وقضيّة العمل هي من القضايا المهمّة جدًّا[١٥].

(١٥) هذه القضيّة عُرضت في الأبحاث القرآنيّة والتلاوات في شهر رمضان المبارك ضمن جلسات المعارف الإسلاميّة.

الجلسة الثانية: الإيمان (٢)

الجمعة، ٣ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١٦].

(١٦) سورة **الأنفال**، الآيات ١-٤.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾[١٧]، هناك مَن يسأل النبيّ عن الأنفال لمن هي ومن يستحقّها؟

قبل كلّ شيء لا بدّ من تعريف الأنفال. باختصار، هي عبارة عن الثروات التي تكون لعامّة المسلمين؛ من مثل: عوائد وغنائم الحرب، حتّى بعض المغانم الخاصّة. ومن نماذج الأنفال أيضًا المناجم التي هي تلك الثروات الباطنيّة، ومنها أيضًا الغابات والمراتع الكبيرة التي تكون في سفوح الجبال والوديان. وهي ليست ملك شخصٍ خاصّ أو جماعة خاصّة بل هي في متناول الجميع وتكون لشعبٍ بأسره، ومن مصاديقها كما ذكرنا تلك الغنائم الخاصّة التي تكون من نصيب المقاتلين في جيش الإسلام.

والمرّة الأولى التي طُرحت فيها هذه القضيّة على المسلمين كانت في معركة بدر، وكأنّ المسلمين كانوا قد تحدّثوا فيما بينهم حول مصرف الغنائم التي حصلوا عليها، وجرى بينهم نوعٌ من الخلاف، فرجعوا إلى النبيّ الأكرم وسألوه فنزلت هذه الآية القرآنيّة وحيًا على النبيّ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ومعنى أنّها لله أي ليست لجماعة محدّدة من عباده، فما يكونَ مال الله وما يُطلق عليه هذا العنوان يجب في الحقيقة أن يُنفق على طريق الأهداف الإلهيّة. ومن الواضح أنّ مال الله ليس لأجل مصلحته سبحانه فإنّه تعالى غنيٌّ عن المصالح ولا يحتاج إلى المال لرفع وسدّ أيّ احتياج، فما هو مال الله هو في الحقيقة مال عباده، ويجب أن يُنفق في المصالح التي حدّدها الله تعالى، فما يكون من الأنفال يجري عليه هذا المعنى.

فما هو إذن الذي يكون للرسول؟ وهل أنّ رسول الله يُعدّ قطبًا مقابل الله؟ كلّا. يمكن لأيّ أحد أن يدّعي الحقّ بمال الله والتصرّف فيه. فمن الممكن أن يقول الجميع إنّ هذا المال هو مال الله ونحن عباد الله، وبهذا

(١٧) سورة **الأنفال**، الآية ١.

التعبير الجميل والحسن بظاهره، والذي يجذب العوام، يمكن أن يُنفَق هذا المال العامّ للحساب الشخصيّ.

وبناءً عليه، فإنّ مال الله، وإن كان ينبغي أن يصل إلى مصالح عموم المسلمين ويصل إلى عباد الله الواقعيّين، لكنّ وصوله إلى المصالح العامّة لا يعني أن يكون بصورة فوضويّة بحيث يُصرف كما يحلو لأيّ إنسان! كلّا، ينبغي أن يكون هناك نوعٌ من المركزيّة، وأن يكون هناك يد مقتدرة تمثّل الله وتكون قيّمة على أمور الناس، فمَن هو هذا المركز؟ إنّه رسول الله. والرسول هنا لم يُطرح بعنوان الرسالة والنبوّة بل بعنوان الحكومة الإلهيّة. فعندما انتقل رسول الله من هذه الدنيا صار الإمام مسؤولًا عن جميع الأنفال، لأنّ الإمام هو الحاكم الإلهيّ. وفي العصر الذي لا يكون الإمام المعصوم فيه حاكمًا على الناس، فإنّ الذي يكون من جانب الله يمكنه، بل يجب عليه أن يحكم الناس، ويكون شأن الأنفال والثروات العامّة من مسؤوليّته.

وعلى كلّ حال، وإن كانت هذه الثروات عامّة، أي إنّ هذه المناجم للجميع، وتلك الغابات والمراتع للجميع، وتلك الغنائم التي تمّ الحصول عليها من العدوّ للجميع، وكذلك صوافي الملوك[١٨] وغيرها من الموارد والمصاديق التي ذُكرت للأنفال، وإن كانت جميعها للجميع لكنّها في نهاية الأمر يجب أن تكون بيد شخصٍ إلهيٍّ مقتدرٍ يكون ممثّلًا لعنوان الحاكم الإسلاميّ. فمن هو هذا؟ إنّه النبيّ في زمان وجوده أي رسول الله، وبعده الإمام المعصوم، وإن لم يكن الإمام المعصوم فهو الإمام الإلهيّ العادل، ذاك الذي ينبغي أن يكون زمام الحكومة الإسلاميّة بيده ويكون مسلّطًا على أمر الأنفال؛ هذا هو القسم الأوّل من الآية الذي لم يكن في الواقع مورد بحثنا.

وبعد أن تمّ تعيين مصرف الأنفال، يقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. يوجد هنا ثلاثةَ أمور أساسيَّة. أوّلًا: تقوى الله، وثانيًا: أصلحوا ذات بينكم وارفعوا

(١٨) نوع من أنواع الغنائم غير المنقولة من أراضي

الخلافات فيما بينكم، وأنّ على الذين يتحدّثون بخلاف الحقيقة أن يتركوا هذا الحديث، ولا ينبغي أن تتشاجروا حول أمورٍ جزئيّة، ولا تفتّشوا عن مبرّر للتنازع، كما يفعل بعض الناس حين يفتّشون دومًا عن أيّ مبرّر مهما كان صغيرًا من أجل منازعة الصديق أو العدوّ وإيجاد الخلافات. فنصيحة الله ورسوله لمثل هؤلاء هي أنّه بدلًا من البحث عن المبرّر للنزاع مع الأصدقاء، لا تفتّشوا ولا تخفوا مبرّرات الحرب مع الأعداء. فلو كنتم أهل الحرب فحاربوا العدّو ولكن لماذا تحاربون الأخ والصديق؟! ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، هاتان هما الوصيّتان الكبيرتان. أمّا الوصيّة الثالثة فهي مطلبٌ عامّ وشامل لجميع الأعمال الصالحة لاجتناب كلّ الأعمال السيّئة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ قضيّة الإيمان التي هي توجّهٌ قلبيّ وارتباطٌ فكريٌّ واعتقاديٌّ ونفسيٌّ بمبدإٍ ما أو شخصٍ أو قطبٍ أو مركزٍ، لا يمكن اختصارها بأنّها عبارة عن توجّه واندفاع نحو شيءٍ يحدث في قلب الإنسان. فالإيمان يكون صادقًا عندما يكون العمل مطابقًا له، هناك يمكن للإنسان أن يدّعي أنّه مؤمنٌ واقعيّ، وذلك عندما يلتزم بلوازم الإيمان وعهوده. هناك يمكن للإنسان أن يقول إنّني مؤمنٌ بالله ومعتقدٌ به تعالى، ذلك عندما تكون حياته وواقعه مختلفًا تمامًا مع ذاك الذي ينكر الله. فما الفرق بين عمل ذاك الذي ينكر الله في هذه الأيّام وعمل الذي يدّعي أنّه مؤمنٌ به تعالى؟ فكلٌّ منهما ظالمٌ، وكلٌّ منهما مستغرقٌ حتّى آخر نفس في المادّيّات، وكلٌّ منهما مستعدٌّ أن يدوس على جميع الفضائل من أجل عدّة أيّام يعيشها، وبعض طعام يأكله، وبضعة أيّام يرتاح فيها، وأجواء متّسخة. غاية الأمر أنّ الأوّل يقول إنّني غير معتقد بالله والآخر يدّعي العكس. فأيّ نوع من الإيمان هو هذا؟! إنّ الآية القرآنيّة في هذا المجال صريحةٌ. ولا مجالَ هنا للاستدلالات العقليّة التي تزيل الشبهات، بل يجب القيام بالأمور المذكورة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وإحدى هذه الأعمال ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

فما هو أمر الله؟ لقد حدّد الله تعالى لكلّ موجودٍ مسؤوليّات وتكاليف ووظائف محدّدة، سواء ما يتعلّق بأموال الناس وأرواحهم وحياتهم وعلاقاتهم مع الإنسان نفسه، وعلاقتهم مع الله، وعلاقتهم مع الكائنات الحيّة وحتّى النباتات. في هذه الحال، إذا أطعتم الله يمكنكم أن تقولوا إنّنا مؤمنون. وفي غير هذه الصورة، فإنّ الإيمان، الذي يكون مجرّد توجّه قلبيٍّ نحو قطبٍ ما دون أن يكون شعاع هذا الارتباط ممتدًّا إلى العمل باليد واللسان والأعضاء والجوارح، لا يكون نافعًا. بل إنّه بحسب الإسلام ممّا لا يصدق عليه اسم الإيمان. هذا هو منطق **القرآن**، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وبمناسبة ذكر «المؤمنين» في نهاية هذه الآية يأتي ذكر صفات المؤمنين وشروط الإيمان في الآية اللاحقة، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[19]. لقد ذُكر فيها للمؤمن الحقّ خمس خصال. ومن الممكن أن لا تكون هذه الخصال الخمس موجودةً في القائل والسامع، ولكنّها ضروريّة في الذي يسعى على طريق الإيمان وأهدافه ليستحقّ اسم المؤمن.

١- أوّلًا، ﴿إنّما المؤمنون﴾ تفيد الحصر ويكون ذكر الله ووجل القلوب مختصًّا بهم. فما الذي يسبّب الوجل؟ وما هو معنى الخوف من الله؟ وهل هو كخوف العاصي مقابل القاضي، أم أنّه نوعٌ آخر أشدّ لطافة ودقّة؟ من الممكن أن يقول قائلٌ إنّني لا أعصي، ولذلك لا أخاف من الله. أجل، إنّ خوف العاصي أمام القاضي وأمام مَن يريد أن يجازي هذا الإنسان، ينتفي مع عدم وجود المعصيّة. ولكن مَن هو هذا الشخص الذي يمكنه أن يطمئّن بأنّه لم يعصِ؟! أمّا النوع الآخر من الخوف، فهو الذي ينشأ من المعرفة. فالإنسان يشعر بالدهشة والحيرة مقابل الأشياء الكبرى والذوات

(١٩) سورة **الأنفال**، الآيات ٢-٤.

والحقائق العظيمة والكبيرة والهائلة. هذه هي خاصّيّة وجود الإنسان، والتركيب الروحيّ والجسميّ لهذا المخلوق، أن يشعر بمثل هذه المشاعر عندما يقابل عظيمًا.

وهذه الحالة من الذهول والوجل ليست من باب الخوف. فمن الممكن أن لا يكون خائفًا أبدًا بمعنى الخوف من التعرّض له بشيء، وليس أيضًا خوف ناشئ من المعصية، بل إنّه نوع من الإحساس بعظمة أمرٍ ما إلى جانب الشعور بحقارة نفسه مقابله. وهذا النوع من خوف الله مطلوبٌ ولازمٌ ومفيد. فالذي يرى نفسه مقابل الله قليلًا وناقصًا وحقيرًا، ويشاهد ربّه مهيمنًا ومسلّطًا ومسيطرًا على جميع شؤون أموره، سيسعى أن لا يتخلّف عن الصراط المستقيم الذي حدّده الله له، وهذا أعظم ضامنٍ إجرائيٍّ للعمل والحركة والسعي للإنسان المسلم، وفي المجتمع المسلم كذلك.

إنّ ما ترونه من أمير المؤمنين في منتصف الليالي وفي ليالي شهر رمضان، حيث يبكي ويذرف الدموع، وما ترونه من الإمام السجّاد الذي كان يصرخ أحيانًا، وما كنتم ترونه من رسول الله مع كلّ جلاله وعظمته عندما كانت تحين العشر الأواخر من شهر رمضان، حيث يأمر بأن يُجمع فراشه ولا يُبسط إلى آخر الشهر، ويترك المنام ويتفرّغ للعبادة والتضرّع والخضوع مقابل الله؛ فلا تظنّوا أنّ هذه الأمور هي أعمالٌ مصطنعة أو تمثيليّة. فكم هو ناقصٌ وغير مطّلع من يقول إنّ الإمام أراد في دعاء أبي حمزة الثماليّ أن يعلّم الناس شيئًا ولم يقصد نفسه، وكم هو بعيدٌ عن الحقيقة وعن روح الدعاء وعن كيفيّة مناجاة عباد الله الصالحين لربّهم.

ذاك الذي يتصوّر أنّ الأنين والبكاء ودموع الإمام، عليه السلام، إنّما كانت لأجل التعليم فقط، أي إنّهم كانوا يمثّلون ويتظاهرون من أجل تعليمي أنا وأنت، هذا هو الاشتباه والخطأ. لقد كانوا يذرفون الدموع وعلينا أن نتساءل لماذا؟ إنّ ذلك قد كان بسبب أنّ معرفتهم بربّهم أعمق وأجلى. فأمير المؤمنين يرى في وجود الربّ المقدّس عظمةً لا يمكن لعيوننا القاصرة

أن تدركها: «فأنت عظيمٌ لا تُرى في المرائي الصغيرة»[٢٠]؛ فمرائي أرواحنا الصغيرة لا يمكنها أن تعكس تلك العظمة العجيبة، ولكن ماذا عن مرآة روح أمير المؤمنين؟! إنّه يستطيع أن يدرك هذه العظمة ويفهمها ولهذا فإنّه يئنّ ويبكي.

عندما يأتي ذكر الله، فإنّ حالة الهيبة والخشية والخوف، بل حالة الرعب الناشئة من الإحساس بالحقارة مقابل عظمة الله، تسيطر على قلوب المؤمنين ﴿إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. فالله يخرج عن صورة الألعوبة بالنسبة لهذا الإنسان، ولا يكون ذكر الله وذكر اسمه ذكرًا اعتياديًّا كما يحصل عندما يجلس في محضر شخصٍ ما ويذكر كلمة «يا الله» من باب التقدير والاحترام، أو يقول «لا إله إلّا الله» من جرّاء التعب، فإنّ مثل هذه الحالات التي تدلّ على اللامبالاة وعدم الإدراك وعدم إدراك نفس الإنسان مقابل ذكر الله واسمه وعظمته، كلّ هذه الصور تخرج من قلب الإنسان العارف بالله والمدرك لعظمته، ذاك الذي يدرك ويستشعر عظمة الربّ، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٢- ثانيًا، ﴿وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً﴾. علامةٌ أخرى للمؤمنين هي أنّهم عندما يستمعون إلى آيات الله تُتلى عليهم أو يتلونها بأنفسهم، فإنّ إيمانهم يزداد. وهذا الإيمان يكون في قلوبهم مثل بذرةٍ تنمو في أرواحهم وتكبر وتكون كالنبتة التي تتسامى، أو كالشجرة التي تستحكم أكثر فأكثر بجذورها ولا يمكن بعد ذلك اجتثاثها. فالإيمان في وجود المؤمن لا يكون كحالة المياه الراكدة. أولئك الذين تعلّموا كلمةً ما (وهي كلمة الإيمان) أثناء طفولتهم ثمّ، وعلى أثر الشكّ الذي يحصل أيّام البلوغ، تسقط تلك الكلمة من صلابتها ومن عظمتها التي كانت في أرواحهم وتنقص وتصبح لا شيء وتكون شبيهةً بالإيمان وتبقى شبيهة بالحقيقة في أرواحهم على أثر الأحداث المختلفة، فمثل هذا الإيمان سوف يُسلب من الإنسان بسهولةٍ ذات

---

(٢٠) تو بزرگی ودر آیینه کوچك ننمایی نازم آن سر که چو گیسوی تو در پای تو ریزد (شهریار).

يوم؛ هذا هو الإيمان المستودع، أو الإيمان المستعار.

إنّ المؤمن لا يكون كذلك. المؤمن الحقّ هو ذاك الذي لو كانت هناك كلمة واحدة عن الحقائق والمعارف الدينيّة في قلبه، فإنّه يتدبّرها ويدقّق فيها ويفكّر ويستعين عليها بكلّ ما يمكن من أجل زيادة إيمانه وعدم زواله، هذا هو المؤمن الواقعيّ.

ونستفيد من هذه الآية، ومن هذه الجملة أنّ إيمان الإنسان المؤمن ينبغي أن يزداد بتلاوة القرآن. ونستند إلى هذه الجملة ونتأمّل في كلام الله هذا ونقول لأولئك الذين ينهون عن ترجمة القرآن وتفسيره وأنّه لا يصل إلى عقولنا، نقول لهم إنّه إذا كنّا لا نستطيع أن نفهم القرآن فكيف يزداد إيماننا بقراءته؟! فمن الواضح أنّ القرآن ليس كتابًا مرمّزًا. إنّه كتابٌ يجب أن يُقرأ من أجل الفهم. والفهم ينبغي أن يكون من أجل تقوية الإيمان وزيادته، هذا هو الشرط الثّاني والخصلة الثانية.

٣- وتتمّة للآية ﴿وعلى ربّهم يتوكّلون﴾؛ علامة أخرى للمؤمنين وهي أنّهم يتوكّلون ويعتمدون على ربّهم. فماذا يعني التوكّل هنا؟ وهل هو بمعنى أن يقعد الإنسان ويقول إنّ الله يحقّق كلّ شيء؟! كلّا، هذا ليس معنى التوكّل. فذاك الذي يختار القعود مقابل التكاليف والعهود والمسؤوليّات، بدل أن يعتبر نفسه مسؤولًا عن استخدام طاقته، ويلقي بالأمر والمسؤوليّة على المعجزة الإلهيّة، على هذا الإنسان أن يعلم أنّ **القرآن** يرفض مثل هذا الأمر. وهذا الكلام ضربةٌ محكمة توجّه لأفواه بني إسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلا إِنَّا ها هُنا قاعِدُونَ﴾[٢١]؛ وكأنّهم يريدون أن يبقوا مختبئين أو يجلسوا في الظلّ، وبالنسبة لهم إذا حصل الفتح يقولون لموسى عليك أن تخبرنا حتّى نأتي.

يرفض **القرآن** مثل هذا المنطق وهذا النهج الذي كان لبني إسرائيل المطرودين والملعونين والمبعدين عن جادّة الإنسانيّة والمحرومين من لذائذ

(٢١) سورة **المائدة**، الآية ٢٤.

الدين والإيمان، ولذلك لم يكونوا لائقين أن يكونوا مسلمين؛ لهذا لا ينبغي تفسير التوكّل بهذا المعنى. والكلام الرائج بين الناس - وأنا أذكره هنا حتّى يسمع الجميع ويفهموا - حيث يقولون: يا فلان يجب أن يقوم الله بإصلاح الأمور، فنحن العبيد لا نستطيع أن نفعل شيئًا، هذا خطأ. فلو لم يكن عبد الله قادرٌ على فعل شيء، ولو لم يكن من دور للطاقة البشريّة والإرادة الإنسانيّة في قلع الفساد، لما أرسل الله تعالى الأنبياء وبعثهم؛ ولما دعا الناس إلى اتّباعهم، ولما أرسل الأنبياء الإلهيّين بتلك الرسالات الثقيلة إلى ساحات المواجهة في هذا العالم. وما ترونه من أنّ الله تعالى أرسل أشخاصًا من أجل اقتلاع الفساد، وهم من الجنس البشريّ، فذلك لتعلموا أنّ على البشر أن يقتلعوا الفساد البشريّ.

فماذا يعني التوكّل إذن؟ إنّه عبارة عن الاعتماد على الله والأمل به في كلّ الأحوال. ولو أنّكم دقّقتم جيّدًا لرأيتم أنّ التوكّل هنا في العبارة التي استخدمتها، يخرج من كونه شيئًا مخدّرًا ليصبح عاملًا باعثًا ومحرّكًا ومبيّنًا.

هل رأيتم بعض الناس ماذا يفعلون عندما يواجهون مصاعب الحياة وأزماتها وعندما لا يكون في أيديهم أيّ شيء من الوسائل الظاهريّة، هل سمعتم عنهم؟ هؤلاء سوف يقومون بأحد الأمور التالية، إمّا أن يستسلموا للعدوّ ويقولوا: ماذا نفعل ولا نستطيع أن نحدث تأثيرًا؟! أو أنّهم يستسلمون لمسير الحياة العاديّة ولا يذهبون لمواجهة العدوّ ولكنّهم من الناحية العمليّة يسلكون طريقًا ومنهاجًا ويتّبعون حركةً وسعيًا بحيث ينسون في النهاية أنّهم استسلموا لتيّار الحياة اليوميّة، فمثل هذا الشخص، وإن لم يسلّم بالظاهر للعدوّ، فإنّه قد استسلم له في الباطن، وهذا أيضًا نهجٌ، وهذه حالة يسلكها عامّة الناس في مثل هذه الأزمات.

والطريق الآخر هو أن ينهوا حياتهم. فذاك الذي يصل مثلًا إلى سدّة الحكم، وعندما يبدأ عملاء القوى العظمى بالسعي لإخضاعه من

كلّ جانب، وتنهال عليه الانتقادات من كلّ أطراف دولته، وعندما يصبح عاجزًا بائسًا ذليلًا تعبًا، فإنّه يختم حياته بالانتحار. هذه طرقٌ تُطرح على الإنسان الذي لا يؤمن بالله عندما يواجه المصاعب، ويُقال له إنّك إذا وصلت إلى طريق مسدود ورأيت أنّه لا يوجد مخرج، فيكون بالنسبة للناس العاديّين عدّة أبواب مفتوحة، أحدها باب الاستسلام للعدوّ، والاستسلام للحوادث والاستسلام للأحداث الطبيعيّة للحياة وباب الانتحار والقضاء على النفس والراحة وأحيانًا الندامات.

أمّا بالنسبة للإنسان المؤمن بالله، فإنّ باب التوكّل على الله يفتح عليه بابًا آخر عند المضائق يغلق بمقابله تلك الأبواب التي تهدر كرامته وشرفه. يقولون هنا: لقد سُدّت المنافذ؛ فيقول: إنّ الله الذي أعرفه سيفتح هذا الباب المغلق أو الطريق المسدود، فمن جهة الله لا يوجد طريقٌ مسدودٌ. إنّ جميع الطرق المغلقة والمسدودة تُفتح بيد القدرة الإلهيّة. وهل كان من طريق مسدود مغلق أكثر ممّا حدث في معركة أُحد، حيث نجد أنّ جيش الإسلام المحدود عددًا وأثناء انشغاله بجمع الغنائم يتعرّض لهجوم من جهتين وبصورة مفاجئة بسبب غفلة بعض الجنود، فتهاجمهم فرقة من الأمام وفرقة من الخلف، وكانوا قد وضعوا السيوف أرضًا وترجّلوا عن خيولهم وتركوا أسلحتهم ليجدوا أنّهم يهاجمون من قبل مجموعتين مسلّحتين بصورة وحشيّة وغاضبة للغاية.

حسنٌ، من الواضح أنّ أيّ جيش لا يكون مستعدًّا ومسلّحًا، فإنّه يفرّ في مثل هذه الحالات. وأثناء فرارهم، فإنّ الشيطان، بمخطّطاته وأحابيله، يستغلّ مثل هذه الأوضاع ويصرخ على لسان بعض أتباعه أنّ النبيّ قد مات، ليُعلن انكسار الجبهة الإلهيّة والرحمانيّة قبل النهاية، فيقول إنّكم قد هُزمتم وإنّ النبيّ قد انتهى. ففي مثل هذه الأزمة وفي مثل هذه المضائق، ماذا يفعل المؤمن المتوكّل؟ هل يوجد مضيقةٌ أشدّ من هذه؟! وكأنّ طرق النجاة قد سُدّت بالكامل، وها هي الأسلحة على الأرض، والعدوّ مستعدّ

ومسيطر، فمن الذي سيأتي لنجدة الإنسان؟ وأين هي نافذة الأمل التي لا توجد إلّا عند عباد اللّه؟ إنّه التوكّل على اللّه. فإذا مات النبيّ، فإنّ ربّ محمّد لم يمت والتكليف لم يرتفع. فماذا يفعل الإنسان المتوكّل في مثل هذه الحالات؟ كأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأبو دجّانة[٢٢] وغيرهما قليل ممّن كانوا من أهل التوكّل. فمن هم الذين لم يكونوا متوكّلين على اللّه؟ أولئك الذين بدأوا بالفرار ولم ينظروا خلفهم من أُحد وحتّى المدينة، فاستمرّوا بالركض والعَدو حتّى وصلوا إلى أبواب المدينة.

فذاك الذي يفسّر التوكّل على أنّه الترك والقعود على أمل المستقبل المجهول الفاقد للسعي، يكون قد سلب من الإيمان قدرته. ذاك الذي يظهر التوكّل بمعنى إبطال إرادة الإنسان وقدرته، ذاك الإنسان إمّا أنّه لم يفهم التوكّل، أو أنّه يفهم لكنّه لا يريد أن يكون شريفًا ويريد أن يبدّل المعنى في أذهان الناس من أجل أن يجعلهم مثله. معنى التوكّل هو ﴿وعلى ربّهم يتوكّلون﴾.

برأيي يوجد جناحان مقتدران لعروج الإنسان وتحليقه في مساعي الحياة: أحدهما الصبر والآخر التوكّل. إنّ كلّ أمّة تمتلك هذين الجناحين، ستكون بمأمن من العداوات الأرضيّة بالكامل ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. إذًا، العلامة الثالثة للمؤمن هي: التوكّل. وما سأتعرّض له في مورد الإيمان هو هذه العلامات واللوازم.

٤- الرابع ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. التفتوا أيّها السّادة هناك فرقٌ في التعبير بين قوله «الذين يصلّون» وبين «الذين يقيمون الصلاة». لو كانت الصلاة هي المطروحة فقط لما كان ينبغي أن يُقال ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾. فمن الواضح من العبارة أنّها غير «أن

(٢٢) السّمّاك بن خرشة المعروف بأبو دجّانة من كبار الصّحابة الذي استُشهد في معركة اليمامة في السنة الحادية عشرة للهجرة بعد ارتحال النّبيّ، وقد كانت بطولاته وتضحياته في معركة أحد إلى حدٍّ أن الآية الرّابعة من سورة **الصفّ** المباركة قد نزلت بشأن مقامه ومقام عظماء أمثال أمير المؤمنين والحمزة. وفي روايةٍ يذكره الإمام الصّادق كأحد قادة جيش الإمام المهديّ، والذي يرجع مع من يرجع، بعد ظهور الإمام.

يصلّوا»، هي حقيقةٌ أرقى وأعلى؛ فما هي هذه الحقيقة بنظركم؟ وماذا يعني قد قامت الصلاة؟ يمكن طرح عدّة احتمالات، ويمكن أن تكون هذه الاحتمالات صحيحة كلّها. أحدها، أن نقول إنّ إقامة الصلاة هي بمعنى الصلاة بصورتها الكاملة والمستوعبة لكلّ الأبعاد، والإقامة في اللغة العربيّة ومصطلحاتها تشير إلى هذه المعاني أيضًا، أي القيام بالعمل بصورة كاملة. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[٢٣] أي اجعل وجهك ووجودك كلّه نحو الدين بصورة كاملة، هذا هو الاحتمال الأوّل. فإنّ الإنسان الذي يقيم الصلاة بهذا المعنى ويؤدّيها بصورة كاملة بأركانها الصحيحة وبالالتفات إلى الأحكام والتعاليم وإلهامات الصلاة[٢٤]، سيكون الفلاح من نصيبه.

الذي يصلّي بصورة جيّدة، كلّ مشاكله سوف تُحلّ. وقد سمعتم أنّ بعض عظماء الدين عند نزول البلاءات والشدائد، كانوا يصلّون ركعتين. وسمعتم كيف كان رسول الله عند الأزمات والشدائد يتوجّه إلى بلال، ويقول: أرحنا يا بلال[٢٥]، أي اذهب وأعلن الآذان. أبرد يا بلال أي قم إلى الآذان. في الواقع، لو أنّ شخصًا أقام الصلاة بتوجّه وخضوع وخشوع وحضور قلب وبالالتفات التامّ إلى ما يقوم به وما يقوله، وبقصد الوصول إلى نتيجة الصلاة، فمن المحتّم أن ينال ما وُعد المؤمنون به في هذا المجال؛ هذا احتمالٌ.

أمّا الاحتمال الآخر من قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هو أن تُقام الصلاة في المجتمع، ويصبح المجتمع بأسره مقيمًا للصلاة. البعض مرتاحون أنّهم يصلّون، ولعلّه بدل ١٧ ركعة في الليل والنهار يصلّون ٥١ ركعة، هذا بالإضافة إلى صلوات مستحبّة أخرى. ولو قيل لهم إنّ الناس يخرجون من دين الله أفواجًا، لما غمّهم ذلك. ورد في التعبير الشعري

---

(٢٣) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

(٢٤) لقد تمّ الحديث بصورة مفصّلة نسبيًّا في مسجد كرامات في مشهد المقدّسة قبل عدّة أسابيع حول الصلاة.

(٢٥) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٨٠، الصفحة ١٧.

لسعدي: لقد طووا سجّادتهم حتّى لا تبتلّ بالماء. يقول لك إنّنا نفعل ذلك، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ولا يصل سوؤنا إلى الآخرين. وهذا ليس عملًا يدلّ على الإيمان. فالذي يصلّي بنفسه ولكنّه لا يهتمّ للآخرين لا يقوم بعملٍ صالح. هذا ليس صحيحًا أي ليس كاملًا.

فما هي علامة الإيمان؟ إقامة الصلاة في المجتمع وجعل الجميع يصلّون ولا يعني ذلك أن يقوم الناس جميعًا بهذه العبادة. فأنا أودّ أن تحرّروا أذهانكم من قالب الألفاظ وتفكّروا بصورةٍ أوسع وأنا أفكّر هكذا أيضًا. فالألفاظ صغيرةٌ وقاصرةٌ. ولا يعني ذلك أن نجعل الذي لا يصلّي، يصلّي. فالمجتمع الذي يصلّي هو المجتمع الذي يلهج دائمًا بذكر الله وفي طريق الله، الذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وهو ذاك الذي يتبرّأ كلّ يوم من أئمّة الفساد أي المغضوبَ عليهم، وأتباع الفساد أي الضالّين؛ هذه هي الصلاة. لو أنّ شخصًا سعى لجعل الآخرين يصلّون بهذا المعنى، فهذا في الحقيقة سعيٌ على طريق العبوديّة المطلقة للحقّ، وعلى طريق اقتلاع الفساد، وعلى طريق اقتلاع الأنا، وعلى طريق إيجاد الوحدة الاجتماعيّة والإنسانيّة بين أفراد الأمّة الإسلاميّة وأفراد البشريّة، هذا هو معنى إقامة الصلاة. فقوموا بما يجعل الناس يقولون كلّ يوم خمس مرّات، وفي كلّ مرّة عدّة مرّات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويقولون في هذه المرّات أيضًا إنّنا نتبرّأ من المغضَوب عليهم ومن الضالّين وننفر منهم. فمن الممكن أن يكون معنى إقامة الصلاة هو هذا.

٥- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ فما هي العلامة الأخرى للمؤمنين؟ وماذا يعني الإنفاق؟ لقد ذكر في الجسلة السابقة معنى الإنفاق وهو يعني ملء الفراغات والاحتياجات. ولو أنّكم جئتم إلى جدار هذا المسجد وطليتموه بالألوان وأنفقتم عليه المال من أجل طلائه، فهذا ليس إنفاقًا لأنّه لم يكن هناك احتياج إلى هذا العمل فقد كان هناك لون، أو صباغ، أو أنّه لم يكن هناك دهان، لكن لم يكن هناك حاجة إليه؛ وجئتم إلى تراب مسجد

الإمام الحسن مثلًا وأنفقتم مبالغ ماليّة من أجل الطلاء، فماذا تكونون قد فعلتم؟ إنّكم أهدرتم كلّ هذا الطلاء على الأرض والتراب. أجل، إنّه صرفٌ للمال ولكنّه ليس إنفاقًا، فالإنفاق عبارة عن تعبئة الفراغ والخلأ والاحتياج الموجود في متن المجتمع.

فماذا يعني قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إذًا؟ أي إنّ المؤمنين هم الذين ينفقون ممّا رزقناهم - ولا يوجد ذكرٌ للمال هنا - ولا يختلف الأمر إذا كان مالًا أو عمرًا أو ولدًا أو سمعةً أو قدرةً جسمانيّة أو لسانًا أو فكرًا أو إمكانات، فإنّهم ينفقون ممّا نرزقهم.

أيّها الأخ المؤمن الذي تحمل اسم المؤمن! إذا قيل لك مؤمن فرحت! ولو أنّ أحدًا شكّك في إيمانك لانزعجت. من الممكن أيضًا أن تقول ما هي الفائدة من أنّكم تعتبروننا بلا دين وبلا إيمان في كلماتكم؟ أيّها الأخ الذي يحمل اسم الإيمان! هل تنفق؟ لا أقول أنّك تصرف أم لا، أجل، إنّك تصرف كثيرًا، فهل إنّك تصرف الأموال في أيّام شهر رمضان، وتهيّئ الطعام اللذيذ، وتدعو الجائعين إلى مائدتك ذات الأطعمة المتنوّعة، فكم تصرف، لكن هل أنّك تنفق؟!

أيّها القائل العزيز كم تتحدّث! وكم تتنفّس! وكم تصرف من رئتيك ووجودك وجسمك وأعصابك! وكم تصرف من طاقة بيانك! ولكن هل أنّك تنفق من هذه الطاقة؟ إنّ كثرة الكلام ليست فنًّا، بل الحديث في مورده هو الفنّ. الأوّل ليس بالإنفاق، هذا هو الإنفاق.

يا مَن تصرفون من سمعتكم وشأنيّتكم، تكتبون رسالةً لفلان، وتتوسّطون إلى فلانٍ من أجل أن يجد عملًا لفلان، وتتودّدون وتتقرّبون بالاحترام إلى فلان، فتصرفون من سمعتكم، لكن هل تنفقون؟!

يا مَن تصرفون المال في الأماكن المختلفة باسم الدين وغير الدين - أجل، فإنّ الإنسان أحيانًا يصرف المال باسم الدين في حين أنّه لم يكن قد أنفق - لا تستوحشوا من هذا الكلام الذي هو حقيقة، وأيّة حقيقةٍ مرّة!

فكم تصرفون من الأموال باسم الدين لكنّها ليست بالإنفاق لأنّها لا تملأ فراغًا، ولا تشفي مرضًا، ولأنّها لا تقضي حاجة مسكين في هذا المجتمع؛ وإنّما أساس الإيمان وشرطه وعلامته هو الإنفاق ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾. بعد ذلك، لو أردتم أن تصرفوا الوقت والسمعة والمال فكّروا جيّدًا، فهل أنّكم بمثل هذا الذي تقدّموه تنفقون؟ أم أنّكم تصرفون بلا طائل.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ تلك المغفرة التي فسّرناها سابقًا، أملنا أن تكون قد استقرّت في أذهانكم، وأن تبقى كذلك. فلو كان الله ليغفر لأحد فإنّه يدمل ذاك الجرح الذي حصل في الروح من جرّاء المعصية. ﴿ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، ذاك الرزق الذي يمتزج بالشرف، لا الذلّة والعسر والوضاعة؛ هذا ما يعطيه الله لهؤلاء.

أينما وجدتم مجتمعًا مؤمنًا، ولا أقول فردًا، لا تقولوا إنّنا الحمد لله حصلنا على لقمة الخبز ونحن مرتاحون ولسنا بقلقين ولا يمنّ علينا أحد. فإنّكم لو نظرتم في طيّات عملكم لوجدتم أنّ كلّه شقاءٌ ومنّة. أولئك الذين يقومون بالأعمال المليئة بالعار لا يشعرون أنّ ما يقومون به هو عارٌ وأنّ هذه اللقمة من الخبز هي لقمة العار. إنّني أتحدّث عن مجتمع تكون لقمة خبزه طاهرةً كريمةً متلازمة مع العزّة والكرامة، وعندما ينال رزقه بعزّة وشرف، يكون مؤمنًا، وله هذه الصفات. فلو كان الأمر كذلك، فإنّ جميع الشعارات التي تطلقها الأحزاب السياسيّة في العالم في هذا الزمان، في كلّ زاوية ومكان، وخلف مكبّرات الصوت، سواء صادقة أم كاذبة، من بين شعوب العالم، سوف تتحقّق في المجتمع الإيمانيّ، من مثل: السلام، والحريّة، والرفاهيّة، والهناء، وعدم الحروب، وعدم سفك الدماء، والأخوّة والمودّة، والمستوى الثقافيّ والعلميّ والمعيشيّ العالي، وكلّ هذه الكلمات والألفاظ التي يحمل بعضها المعاني وبعضها قد يكون فاقدًا لأيّ معنى، فإنّها جميعًا سوف تتحقّق في المجتمع الإيمانيّ، لَهُمْ ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

الجلسة الثالثة: الإيمان الواعي
السبت، ٤ رمضان المبارك، ١٣٥٣هجريّ شمسيّ

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ * الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[٢٦].

(٢٦) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٩٠ و١٩١

بالالتفات إلى الآيات التي وردت، نذكر عدّة حقائق أساسيّة في مجال الإيمان:

أوّلًا: الإيمان والاعتقاد بالله ورسالاته خصلةٌ بارزةٌ لرسل الله والمؤمنين بهم ولأتباعهم. ويكمن الفرق الجوهريّ بين القادة الإلهيّين والزعماء السياسيّين في العالم في هذه القضيّة؛ أنّ القادة الإلهيّين الذين سلكوا طريق الإيمان يؤمنون من أعماق وجودهم بما يقولون وبكلّ خطوة يخطونها وبالطريق الذي يسلكونه. في حين أنّ زعماء العالم يمكن أحيانًا أن يصدر منهم كلامٌ جميل وخُطب رنّانة وعذبة ولكنّهم لا يؤمنون بما يقولون أو أنّ إيمانهم لا يكون بالمستوى المطلوب.

ولقد نُقل عن أحد زعماء دولة كبرى من دول المعسكر الشرقيّ - بما يحمله هذا البلد من شعارات إلحاديّة وثقافة ومذهب يدين بشدّة كلّ فكر غير مادّيّ - أنّه عند سفره إلى الهند بعد استقلالها، ولأجل جذب قلوب الملايين من الشعب الهنديّ الذي كان استقلاله جديد العهد، أدهش الهنود والهندوس بشكلٍ عامّ عندما نظروا إليه ورأوا أنّه قد وضع صورةً أو رسمًا لتايلاك على جبهة زعماء هذه الدولة الشيوعيّة.

وتايلاك هو أحد قادة نهضة الحريّة الهنديّة، وقد كان من رجال الدين والروحانيّين الكبار للهندوس، كما كان يُعدّ من روّاد الثورة الهنديّة في إحدى الفترات الزمانيّة. ولا بأس بأن أذكر لكم على هامش هذه الكلمة - والتي لا ترتبط بصورة مباشرةً ببحثنا لكنّ معرفتها مفيدة ولا بأس بها - أنّ نهضة الهند امتدّت لـ٩٠ سنة، منذ بداية تشكّلها وتبرعمها وحتّى يوم إثمارها ونهايتها، ومنذ بدايتها حتّى آخرها كان قادتها الأساسيّون من الروحانيّين. فإمّا أنّهم كانوا من الروحانيّين المسلمين كمولانا شاه محمود دهلوي، ومولانا محمود الحسن[٢٧]، ومولانا

(٢٧) مولانا محمود الحسن ١٨٥١ - ١٩٢٠ (م)، والمعروف بشيخ الهند هو أول جامعيّ للمدرسة المعروفة بالدّيوبندي الهند، وهو تلميذ مولانا أحمد رشيد گنگاوی والذي تولّى إدارة المدرسة بعده. لقد كان مولانا محمود الحسن من قادة المسلمين في الهند في نضالهم ضدّ الاستعمال الإنكليزي حيث تمّ الحكم عليه بالسّجن والنّفي عدّة مرّات.

أبو الكلام آزاد[٢٨]، ومولانا محمّد علي، ومولانا شوكت علي[٢٩] - حيث إنّ التعبير بمولانا عند الهنود يوازي ما نستخدمه نحن من كلمة آية الله - فآية الله محمّد علي، وآية الله شوكت علي، وآية الله أبو الكلام، وآية الله محمود الحسن، كانوا قادةً كبار لنهضة الهند من قبل المسلمين. إمّا أنّهم من الهندوس مثل: مهاتما غاندي، الذي هو روحانيٌّ هندوسيّ، وروحانيّ تابع لمذهب الجين، ومرتبط بمذهب الجينيّة[٣٠]، أو لا.

المهمّ أنّ تايلاك كان راهبًا هندوسيًّا - ولعلّ التعبير بلفظ الراهب ليس دقيقًا - وعلى كلّ حال، فقد كان روحانيًّا هندوسيًّا يتمتّع بعظمة كبيرة وأخّاذة ورجلًا مدهشًا جدًّا، مات أثناء النهضة وقبل وصولها إلى ثمرتها، وارتحل من هذه الدنيا ولم يرَ تحرير الهند. لكنّنا نجد، بعد مرور ثلاثين أو أربعين سنة على موته، أنّ أولئك الذين تربّوا على يديه قد شربوا وارتوَوا من كأس الحريّة. وكان هناك صورةٌ مرسومةٌ له كتذكار؛ أي لهذا الرجل المنادي بالحريّة والذي كان روحانيًّا هذه الصورة أو الرسم الذي يبرز فيه البعد الروحانيّ والمعنويّ الذي نطلق عليه ما وراء الطبيعة؛ فتايلاك نفسه كان رجلًا صاحب مقاماتٍ روحانيّة بحسب رأي الهندوس. وفي النهاية، هو

لقد كان مبدع نظريّة نهضة عدم التّعامل مع الإنكليز.

(٢٨) أبو الكلام محي الدين أحمد (١٨٨٠- ١٩٥٩) م. المشهور وبآزاد ومن علماء الهند وقادة النّهضة المسلمة. بدأ نشاطه الجهادي بنشر أسبوعيّة الهلال وبعدها أسّس مدرسة دار الإرشاد، وبعد مدّة قامت الحكومة بإقفال مدرسته ونفيه إلى المناطق الجبليّة. وبعد نفيه وقف إلى جانب غاندي في مواجهة الاستعمار. وبعد استقلال الهند والمشهور بآزاد، ومن علماء الهند وقادة النّهضة المسلمة. بدأ نشاطه الجهاديّ بنشر أسبوعيّة الهلال، وبعدها أسّس مدرسة دار الإرشاد. وبعد مدّة قامت الحكومة بإقفال مدرسته ونفيه إلى المناطق الجبليّة. وبعد نفيه وقف إلى جانب غاندي في مواجهة الاستعمار. وبعد استقلال الهند تولّى مسؤوليّة وزارة التّعليم والتّحقيق العلميّ في الهند.

(٢٩) مولانا شوكت علي (١٨٧٣ – ١٩٣٨ م.) ومولانا محمد عليّ (١٨٧٨ – ١٩٣١ م.) أخوان من علماء شيعة الهند، أسّسا تيّارًا باسم نهضة الخلافة أثناء الحرب العالميّة الأولى من أجل دعم الامبراطور العثمانيّ. وقد وقفا في نضالهما مع غاندي ضدّ الاستعمار الإنكليزي، وسعيا كثيرًا من أجل الوحدة بين المسلمين والهندوس.

(٣٠) هو مذهبٌ عرفانيّ وأقدم من البوذيّة حيث أنّ أتباعه يتعهّدون عدّة أمور من ضمنها عدم قتل أو أذيّة أيّ كائنٍ حيّ، اجتناب أي قولٍ أو فعلٍ يؤدّي إلى الغضب أو الكذب، عدم مدّ اليد إلى أموال الآخرين، تحريم الشّهوات الجنسيّة على أنفسهم، ترك أيّ نوع من التعلّق ولو كان قليلًا بالأشياء سواء كانت حيّة أو غير حيّة.

رجلٌ يمثّل الروحانيّة.

شاهد الهنود عندها أنّ زعماء روسيا المادّيّة، الذين جاؤوا إلى الهند، قد رسموا صورة هذا الرجل على جباههم من أجل جذب أنظار عامّة الناس؛ وبتعبير آخر أنّهم مشاركون لهم من هذه الجهة (الروحانيّة الماورائيّة)، في حين أنّ دعواهم كانت مناقضة لهذا الكلام وكذلك مدرستهم أو مذهبهم الفكريّ.

هذا هو شأن العديد من الزعماء السياسيّين البعيدين عن المسؤوليّات المعنويّة والإيمانيّة والإلهيّة. أمّا رسل الله، فإنّهم على النقيض من ذلك، يؤمنون بكلّ وجودهم بما يقولون وبما يدعون الناس إليه، بل يسبقونهم جميعًا إلى ما قد نادوا به. فليس مقبولًا أن أكون أنا عند سفح الجبل أنام وأستلقي ويقتلني العطش، ثمّ أقول لكم أيّها السادة إنّ في أعلى هذا الجبل نبعًا من المياه العذبة فانهضوا واركضوا واسرعوا وسارعوا وسابقوا، وأنا هنا لن أتزحزح. فللآخرين الحقّ أن يقولوا إنّك لو كنت صادقًا ولو كنت عالمًا بوجود مثل تلك المياه العذبة، فلماذا تحترق من العطش؟ فيا أيّها المسكين انهض بنفسك وتحرّك، وإلّا فأنت تكذب ولا تعتقد بما تقول.

إنّ القادة الإلهيّين، يتحرّكون قبل الآخرين جميعًا، يسيرون ويتقدّمون الجموع على الطريق، ويحملون الراية ويخطون بخطوات ثابتة وواثقة. يقول إبراهيم، خليل الرحمن: إنّني أوّل من أسلم لك يا ربّ وخضع، ومن بعدي بقيّة الناس وسائر خلق الله. هذه هي خاصّيّة القادة الإلهيّين. القائد الإلهيّ ينبغي أن يكون هكذا وهو كذلك. إنّ النبيّ الأكرم كان يتواجد في أهمّ حوادث صدر الإسلام وأشدّها خطرًا. وصحيحٌ أنّ عبد الله بن مسعود[٣١]

(٣١) كان عبد الله بن مسعود من أوّل من آمن بالنّبيّ، وهو أوّل المؤمنين الذين كانوا يتلون آيات القرآن في دعوة قريش إلى الإسلام، وبعد تحمّل كلّ أنواع التّعذيب هاجر بأمرٍ من النّبيّ إلى الحبشة، وقد أرسله الخليفة الثّاني مع عمّار بن ياسر كمدرّسٍ للقرآن إلى الكوفة، وبعد نفي أبي ذرّ إلى الرّبذة صلّى على جسمانه. وبسبب اعتراضاته على حاكم الكوفة بزمن عثمان أعيد إلى المدينة. وقد تُوفّي عبد الله بن مسعود عام ٣٢ للهجرة على أثر المرض الذي عرض عليه بعدما تمّ ضربه وتعذيبه من قبل عمّال الخليفة.

كان ينال حظّه من الضرب وكذلك الخبّاب[٣٢] وعمّار بن ياسر[٣٣]، وكانوا يتعرّضون لشتّى أنواع التعذيب، لكنّ الآلام والعذابات التي كان يعاني منها رسول الله أو يتلقّاها لم تكن أقلّ منهم بل كانت أكثر. فلو قارنتم بين حالة النبيّ وأحوال غيره من المسلمين الأتقياء الذين التفّوا حوله لوجدتم أنّ رسول الله (ص) كان يتلقّى أشدّ أنواع ردود الفعل وأكثرها عنفًا، فقد كان على الدوام في المقدّمة ويتحرّك في الجبهة الأماميّة.

إنّ الإيمان هو من جملة الخصائص التي تمتّع بها رسل الله، وهو يعني التصديق والقبول بكلّ الوجود أو من أعماق القلب ومطابقة الفعل للقول. وإنّ من علائم هذا الإيمان هو أن يكون الإنسان نفسه متقدّمًا على الآخرين على أيّ طريق يسلكها، والآية القرآنيّة تشير إلى هذا المطلب، حيث قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٣٤]؛ هؤلاء الذين اتّبعوا هذا الرسول وأضحوا من كبار الداعين لرسالته، ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، سواءٌ كانوا جماعةً أو فرادى، فإنّ إيمانهم بالله وتسليمهم له أضحى من خصائص شخصيّتهم بالإضافة إلى إيمانهم بملائكته وكتبه التي نزلت منذ بداية البشريّة وحتّى يومهم. ﴿وَرُسُلِهِ﴾، وذلك لأنّ إيمانهم بالجميع يدلّ على إيمانهم بالطريق الواحد.

والأنبياء في هذا الطريق مثل سادة القافلة، فالكلّ دليلٌ ومرشدٌ، والجميع

---

(٣٢) خبّاب بن أرت كان من أهل النّبطيّة ومن العبيد الذين لبّوا نداء النّبيّ وتعرّض إلى الكثير من التّعذيب وبقي إلى جانب النّبيّ. كان حاضرًا إلى جانب أمير المؤمنين في حروب صفّين والنّهروان، وقد قال أمير المؤمنين بشأنه بعد وفاته، كما جاء في نهج البلاغة: يَرْحَمُ اللهُ خَبَّابًا، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا، وَهَاجَرَ طَائِعًا، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِ، وَعَاشَ مُجَاهِدًا.

(٣٣) عمّار بن ياسر، اسم عمّار مع أبيه وأمّه سميّة. وقد تبرّأ عمّار من النّبيّ حتّى يحفظ نفسه أثناء تعذيب أمّه وأبيه، وهناك نزلت فيه هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ [سورة **النحل**، الآية ١٠٦]، وبقي عمّار بعد رحيل النبيّ إلى جانب أمير المؤمنين وقد تولّى عمّار في زمن الخليفة الثاني ولاية الكوفة لمدّة، حيث قام الخليفة بعدها بخلعه على أثر السعايات. لقد كان له دورٌ مؤثّر في تجهيز جيش أمير المؤمنين في حرب الجمل، وجوابه على شبهات جنود أمير المؤمنين في معركة صفّين. توفّي عمّار بن ياسر عن عمرٍ ناهز الواحد وتسعون سنة في معركة صفّين.

(٣٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٥.

أدلّاء وقادة لقافلةٍ واحدة، ويتقدّمون المسيرة على نفس الطريق، ويتّجهون نحو هدفٍ واحد، وهم متواجدون مع الناس في كلّ مكان، ويحثّونهم على المضيّ نحو ذلك المقصد الواحد، ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه﴾ ـ وهذا هو لسان حال المؤمنين، إذ لا يعتقدون بوجود أيّ اختلافٍ بين الأنبياء. وبالنسبة لنا إنّ عيسى محترمٌ، وكذلك موسى وإبراهيم وإدريس[٣٥]، وأيضًا يعقوب وجورجيس[٣٦] وكذلك نوح، لأنّ الأنبياء كانوا منذ البدء وحتّى النهاية مطيعين وعاملين لله، ويتحرّكون نحو هدف واحد، يبشّرون بسعادة وجنّة واحدة، ويتحرّكون على خطٍّ واحد، ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه﴾، فنحن لا نقول بأيّ اختلاف بين أيّ نبيٍّ وآخر[٣٧].

﴿وَقَالُوا﴾، دقّقوا هنا وأمعنوا النظر في هاتين الجملتين التي ستكون محلّ الشاهد في المسألة التي سنتحدّث عنها لاحقًا. الإيمان سمةٌ بارزةٌ في الأنبياء وفي نبيّنا وفي المؤمنين والأتباع والأولياء، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإنّهم يسمعون ويفهمون ويدركون. إنّ الأمر هنا بقولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ لا ينحصر بوصول الصوت بوساطة جارحة السمع التي يُعبّر عنها باللغة العربيّة بالأذن، بل في الإدراك. وأنتم تلاحظون كيف أنّ التعبير باللغة الفارسيّة عندما يقول أحدهم للآخر: استمع، ويسأله: هل سمعت ما قلت؟ أو تقولون لمخاطبيكم: هل سمعتم ما قلنا؟ فمن الواضح أنّ الأمر لا يرتبط بسماع الصوت لأنّ المسافة الفاصلة بينكم وبين المستمعين لا تتعدّى نصف المتر وصوتكم قد يصل إلى ١٠ أمتار. فليكن من الواضح عندكم أنّه قد سمع ولكن أردتم أن تقولوا له: هل فهمت ما سمعت؟ وهل دخل إلى ذهنك ما قلت؟ هؤلاء سيقولون ﴿سَمِعْنَا﴾، حيث يقصدون بأنّهم فهموا بتمام

(٣٥) بُعث إدريس نبيًّا بعد آدم وشيث. وطبق رواية منقولةٍ عن الإمام الصادق، سُمّي إدريس بسبب كثرة تدريسه، وقد علّم الله تعالى البشر الكتاب بواسطة هذا النّبيّ.

(٣٦) جورجيس، هو نبيٌّ من بني إسرائيل بُعث بعد عيسى وقد تحمّل الكثير من التّعذيب والأذى أثناء دعوة قومه وإنذاره لحاكم زمانه.

(٣٧) هذه المسألة سوف نتعرّض لها في مجال البحث عن النبوّة ضمن هذه السلسلة من الدروس.

وجودهم ما حدّده الله لهم وأرسله إليهم.

﴿ وأَطَعْنا ﴾ ، بالتأكيد إنّ الطاعة هنا ليست طاعةً عمياء بل طاعةٌ مبنيّةٌ على الوضوح والوعي والسمع. ﴿ غُفْرانَكَ رَبَّنا ﴾ ، إنّ الثواب الذي نطلبه منك يا الله هو مغفرتك وليس شيءٌ آخر. ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصيرُ ﴾ ، ونريد الرجوع إليك[٣٨].

فماذا فهمنا لحدّ الآن من هذه الآيات؟ المسألة مرتبطة بالإيمان والتصديق الذي يُعدّ من خصائص أتباع دعوة الإسلام. وأولئك الذين لا يمتلكون الإيمان ولا التصديق يتحرّكون من باب الاحتياط لأنّهم شاهدوا غيرهم يتحرّك، فمثل هؤلاء ليسوا ضمن دائرة الفكر الإسلاميّ، لأنّ هذا الفكر ليس فيه أيّة مجاملة بل يتطلّب الإيمان. الإيمان يعني التصديق وتقبّل المطلب بوضوح والإذعان له والتحرّك نحو أمر يتمتّع بجاذبيّة خاصّة. فلو لم تكن هذه الجاذبيّة موجودةً في الدين والقرآن ولم تهيمن على قلوبكم، فإنّ ذلك القلب سيكون ميتًا، ولم يحيَ بنور الإسلام، ولا يصحّ أن يُقال بأنّه مسلم. فالإيمان لازمٌ وضروريّ؛ وهذا هو المطلب الأوّل.

أمّا المطلب الثاني هو أنّ الإيمان على نحوين:

النحو الأوّل هو الإيمان التقليديّ والمتعصّب، فهؤلاء بمجرّد أن وجدوا آباءهم وكبارهم قد صدّقوا بشيء فإنّهم يصدّقون به. ولسان حالهم يقول: لأجل أنّ هذا الأمر قد ذُكر في كتابنا أو ضمن دائرة ديننا فنحن نقبل بذلك وننطق به. ولو أنّك أتيت بدليل، فإنّك لا تكون قد فعلت شيئًا بالنسبة لهؤلاء لأنّهم لن يقبلوا كلامك. هذا نوعٌ من الإيمان، لكنّه الإيمان الذي يقوم على أساس التقليد أو العصبيّة مثل عامّة الناس، فلو سألت أحدهم: مَن الذي يقول إنّ نبيّ الإسلام على حقّ؟ فإنّهم لا يستطيعون أن يعرفوا شيئًا، هؤلاء فقط لأجل أنّ آباءهم قد ذكروا ذلك أو لأنّ معلّم المدرسة قد نطق به أو لأنّ النّاس في الأزقّة وفي الأسواق يقولون أنّ النبيّ على حقّ، هم يقولون به.

---

(٣٨) سنقوم بتوضيح قضيّة الرجوع إلى الله في مبحث المعاد إن شاء الله ضمن هذه السلسلة.

إنّهم أصحاب إيمان، أي إنّهم في الواقع مؤمنون بأنّ النبيّ حقّ لكنّ هذا الإيمان نابعٌ من لسانٍ هذا أو ذاك أو عن طريق التقليد وإغماض العين. ومثل هذا الإيمان المقلِّد يوجد الإيمان المتعصّب، حيث نجد بعض الناس مستعدّين، والعياذ بالله، أن يطعنوا أو يهينوا الأنبياء الآخرين من أجل أن يفرحوا نبيّنا. يتصوّرون أنّه يوجد في الملكوت الأعلى تباينٌ بين الأنبياء؛ فيقول بعضهم: ومَن هو موسى هذا يا عزيزي؟ فقط نبيّنا. وللأسف، إنّ هذا لا يختصّ بالشريحة الجاهلة فحسب، ففي بعض الأحيان يشاهد المرء مثل هذه الأخطاء بين الشرائح التي يتوقّع منها أمورًا أكثر من غيرها وأن تفوق غيرها في الفهم وكذلك في الوعي. ويوجد العديد من هذه النماذج التي نشاهدها هنا وهناك ولا حاجة لأن نذكرها أو نفصح عنها هنا. هذا هو ما يُسمّى بالتعصّب. فلأنّ دين الإسلام يقول كذا فهو صحيحٌ، ولأنّ الأديان الأخرى تقول كذا فهو خطأٌ؛ ولأنّنا نحن المسلمون نقوم بمثل هذه الأعمال فهي صحيحة، ولأنّ الآخرين يقومون بأعمالٍ معيّنة فهي خطأ. إنّه نوعٌ من الإيمان ولكنّه لا يستند إلى دليل وإنّما ينبع من التعصّب. والتعصّب كما تعلمون عبارة عن الدعم والتأييد الذي يفتقد إلى الدليل والمنطق ويستند إلى المشاعر.

ولأجل أن ألفت أنظاركم أيّها الأعزّاء، يجب أن أقول إنّ الإيمان الذي يتمتّع بالقيمة في الإسلام ليس الإيمان التقليديّ والمتعصِّب لأنّه فاقدٌ للقيمة، وهل تريدون دليلًا على ذلك؟ أنا أختار لكم من بين عشرات الأدلّة دليلًا واحدًا، وهو أنّ الإيمان عندما يقوم على التقليد والتعصّب، فإنّ سهولة زواله كسهولة اكتسابه، كالطفل الذي يحصل على إيمانٍ من دون أيّ تعب، أو كذاك التلميذ الذي يحصل عليه من آبائه أو أولياء مدرسته من دون أيّ سعي. فإنّ سارقي الإيمان يستطيعون أن يسلبوه إيّاه بسهولة أيضًا. وفجأةً عندما تنظرون، ستجدون [أمامكم] جيلًا فاقدًا للإيمان، قد خسر كلّ إيمانه وأضحى كلّ ما يرتبط بالإيمان سرابًا [بالنسبة له]، كالثلج الذي

يذوب في حرّ القيظ مقابل الشعلة المادّيّة. ومَن أقصد بهذا الكلام؟ من الطبيعيّ والعاديّ أن أقول إنّه جيل الشباب. ولكنّني بالطبع لا أقول أنّ ذاك الجيل الفاقد للإيمان هو جيل الشباب، كلّا ـ لأنّنا إذا نظرنا إلى براعم الإيمان في مختلف الزوايا لشاهدنا بصورة جليّة أنّها موجودة في الشباب أيضًا. فأهلًا وسهلًا بجيل الشباب الذي يسعى نحو الإيمان غير التقليديّ وغير المتعصّب ويطلب الإيمان الواعي ـ فأنا أقصد ذاك الجيل الذي كان قبل جيل الشباب اليوم؛ الجيل الذي تخطّى مرحلة الشباب في مجتمعنا، هؤلاء الذين يحملون العقائد بصورة إيمان أعمى. بالطبع، هو يذهب إلى مجالس العزاء وإلى صلاة الجماعة، ولو أُتيح له الأمر فإنّه يذهب، لكن بما أنّه لا [يقوم بذلك] على أساس المنطق والوعي والشعور والإدراك؛ فإنّه يصبح مستعدًّا بسهولة لأن يحرق المسجد ولأن يسحق الإمام الحسين، ومستعدًّا للتضحية بكلّ ما يراه ذا قيمة بالنسبة له، كما يحصل الآن، وكما نشاهد كيف يفعلون ذلك.

ونحن اليوم، نجد أنّ من أكثر الأمور التي نعاني منها هو التعامل مع الجيل الذي عبر مرحلة الشباب؛ فهؤلاء محرومون من كلّ مراتب الوعي ووضوح الرؤية التي لجيلنا المسلم الشاب اليوم. فمثل هذا الجيل، وللأسف، محرومٌ من ذاك الإيمان العميق الراسخ المصون من آفات زمن الجيلين السابقين. فهو لا يمتلك ذلك الإدراك والشعور والوعي الذي يمكّنه من الوصول إلى ذلك الإيمان الثابت في نفسه، والذي يستطيع في ظلّه من مواجهة أو تحطيم أغلال المال والمقام والشهرة والرفاهيّة والراحة. فالأمور والأوضاع لم تعد كما كانت عليه قبل قرن أو قرنين من الزمن، وهي تشبه حال صندوق محكم أو قلعة قويّة منيعة يتمكّن المرء من حفظ إيمانه فيهما بالحدّ الأدنى، حتّى وإن كان ذلك الإيمان عبارة عن الإيمان المقلِّد.

في النهاية، فما حدث منذ حوالي مئة سنة، ممّا يمكن أن نعبّر عنه بنشوء قطّاع طرق الفكر والإيمان والعقيدة، لم يكن موجودًا قبل ذلك. ففي

تلك الأيّام، لم تكن أيادي الأعداء وتلك الأصابع الخائنة قد نفذت إلى جسم مجتمعنا كما هو حاصل اليوم. ولم تكن تلك المخطّطات قد وصلت إلى هذه المرحلة التي نراها اليوم وهي تسعى للقضاء على الإيمان الدينيّ الأصيل للناس من أجل فعل كلّ ما يحلو لها بهم. فكلّ ذلك حدث فيما بعد. إنّ هذا الجيل السابق على الشباب لا يُعدّ اليوم شابًّا بل كان بالأمس كذلك، هو اليوم عرضةٌ لسيولٍ تريد أن تجتثّ إيمانه وعقيدته من الجذور. وهو في المقابل لا يتمتّع بأيّ إيمانٍ محكم بالحدّ الأدنى. فهنيئًا لأولئك الذين اختاروا إيمانهم على أساسٍ الوعي والإدراك والشعور والفهم. فالسيول تأتي وتقتلع تلك الأشجار الباسقة ولكن تلك النباتات التي، وإن بدت نحيلةً وهزيلةً، لكنّ جذورها تمتدّ تحت الأرض بما يعادل ضعفي طولها، فهي تبقى مصونةً ومحكمة. فكلّ ما يكون متجذّرًا لا يزول مع كلّ هذه الأقاويل.

على كلّ حال، هذه حقيقةٌ وقضيّةٌ مسلّمة في الإسلام. إخواني! إنّ الإيمان الذي يتمتّع بالقيمة المطلوبة هو الإيمان الواعي المتلازم مع الإدراك والشعور؛ إيمانٌ يتحقّق على أساس البصيرة والعين الباصرة، دون الخشية من الإشكالات. ذاك الإيمان الذي يوجد في المسلم الفلانيّ والذي يجعلنا نقول له: لا تقرأ الجريدة!، ولا تقرأ ذلك الكتاب!، ولا تمشِ في أزقّة الأسواق!، ولا تتحدّث مع الشخص الفلاني! كلّ ذلك من أجل أن يحافظ على ذلك الإيمان؛ وكذلك كما يقال لا ينبغي أن يصل إليه الحرّ والبرد ولا ضياء الشمس ولا نور القمر! لكي يبقى؛ إنّ هذا الإيمان وللأسف لن يبقى. فالإيمان المطلوب هو ذاك الذي يحصل بوعيٍ تامّ ولا يزول في أشدّ الظروف صعوبةً.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ وقد نزلت هذه الآية بشأن ما جرى معَ عمّار بنَ ياسر، وهيَ تقولَ إنّ الإنسان لو كان تحت التعذيب فإنّه يستطيع أن يتنكّر لإيمانه بالكلام من أجل أن يخفّف عن نفسه لحظةً من تعذيب العدوّ، إلّا أنّه ذاك الإيمان الذي لا ينمحي من القلب بسبب التعذيب.

وهكذا كان حال ذاك الإيمان الذي كان في قلب الخبّاب بن أرت، والذي لم يفقده تحت كلّ أنواع التعذيب الشديد - حيث كانوا يكوون جسده بالحديد المحمّى - لأنّه كان إيمانًا عميقًا، فهذا هو الإيمان الحقيقيّ.

فإذا تحقّق الإيمان القائم على الوضوح والإدراك والفكر والحسابات الصحيحة، لا يلزم حينها أن نضعه في مغلّف أو في صندوق ونعزله لئلّا يتأثر بالحرّ والبرد والغبار؛ وإنّه سيكون ذلك الإيمان الفاقد للإدراك الذي يتطلّب كلّ تلك العناية والرعاية والتحذير والقلق. ولو أردنا أن يكون الإيمان واعيًا ثابتًا لا يزول، فيجب علينا أن نزوّده بالوعي والمعرفة دومًا، ولا ينبغي أن نقلق من مثل هذه المعرفة، أو أن نفرح بأنّنا قد قمنا بسدّ نوافذ العين والأذن. وطريقه هو أن نوجد أرضيّة الوعي والرشد في العقول والقلوب والأفكار، فنتمكّن بهذه المعرفة من بناء ذلك الإيمان الصحيح والمحكم والذي يشبه الباطون المسلّح في القلب. عندها، فإنّ هذا الإيمان لا يمكن أن يزول حتّى لو أطلقنا عليه قذيفة مدفعيّة شديدة كما كان يقول الشباب عندنا في الزمن القديم. فالإسلام يتطلّب إيمانًا واعيًا وهذه الآيات التي ذُكرت في آخر سورة **آل عمران** تدلّنا على هذا النوع من الإيمان وتعرّفنا عليه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذه مقدّمات وهي ترتبط بعمليّة الخلق، وفي اختلاف الليل والنهار دلالاتٌ وعلائم، فهل هي للمنحرفين والفاقدين للإدراك والذين لا يتفكّرون؟ كلّا، أبدًا، بل هي لأولي الألباب. أولئك الذين يتفكّرون ويدركون ويفهمون، وهو يرتبط بجميع الناس في حال قاموا بإعمال فكرهم وذكائهم. فالمسألة ليست أنّه منذ البداية وعند الولادة يُفصل الناس ويصنّفون بعلامة تكتب على لوح خاصّ بأنّ هؤلاء ليسوا بأذكياء ولا يمكن أن يكونوا من أولي الألباب، وعلى لوح آخر أنّ الآخرين من أولي الألباب! كلّا، أولي الألباب تعني كلّ الناس. فالمليارات الثلاثة الموجودة في أيّامنا كلّهم من أولي الألباب بشرط أن يحرّكوا هذه

القوّة العاقلة الموجودة في أنفسهم ولو خطوة واحدة. فهذه السيّارة لو قمتم بشرائها ووضعتموها في المنزل ولم تستخدموها ولم تشغّلوا محرّكها، وجئتم إليها بعد مدّة وأردتم أن تشغلوها فإنّها لن تعمل وستصدأ، وإذا لم تصدأ فإنّها ستفقد القدرة على السير. السيّارة لم تكن مقصّرة وإنّما التقصير كان من قبل صاحبها. وأولو الألباب هم أولئك الذين يستعملون فكرهم وعقولهم من أجل أن يصبحوا كذلك.

فمن هم أولو الألباب؟ انظروا إنّنا هنا أمام إحدى اللطائف القرآنيّة. فعندما يتمّ الحديث عن أولي الألباب وذكرهم والتعريف بهم للناس العاديّين، يُقال إنّ أولي الألباب هم أولئك الذين يتقدّمون في جميع أمور معاشهم وشؤون حياتهم ولا يمكن أن يُخدعوا في أيّ أمرٍ من أمورهم، سواءٌ في المعاملات والسياسات، أو في مواجهة خصومهم، فهم يتفوّقون عليهم دومًا. وحيث إنّ **القرآن** لا يقبل بأيٍّ من هذه الألاعيب، ولأنّ القيمة الواقعيّة للإنسان تكمن في ارتباطه واتّصاله بربّه، فإنّه يعرّف أولي الألباب بهذه الصورة. وبحسب الرؤية القرآنيّة، هم الذين قد حازوا على أرفع الأمور وأكثرها قيمةً مقارنةً بكلّ الأشياء وكلّ الأشخاص ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾؛ هم يفعلون ذلك في قيامهم وفي قعودهم وعند استلقائهم، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾ أي أنّهم يذكرون الله في جميع أحوالهم. لكنّ ذكر الله هذا، ليس بمعنى تلك الحالة العرفانيّة التي تمتزج بتظاهر الدرويشيّ الصوفيّ الذي يعجب البعض، فيقولون إنّنا نذكر الله دائمًا ونصدح بأسمائه، كلّا؛ بل إنّه حالةٌ فعليّة. وهذا الذكر ينبغي أن يكون عمليًّا، فكيف يحصل ذلك؟ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، انظروا إلى أولي الألباب إنّهم أولئك الذين يتوجّهون بفكرهم إلى خلق السماوات والأرض، وبعد أن يقوموا بهذه العمليّة الفكريّة، فإنّ ألسنة قلوبهم وحواسّهم تقول ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا﴾، فينزّهون الربّ المتعال عن العبث في الخلق، ومثل هذا الأمر يُعدّ النقطة الأكثر أهميّة في

أيّة أيديولوجيّة أو رؤية كونيّة.

إنّ أيّة رؤية كونيّة لها علاقة ببناء الحياة تدور حول نقطة أساسيّة وهي الفاعليّة. فلو كان الأمر يرتبط بالاعتقاد بالله مثلًا، فإنّها تقول إنّ هذا الاعتقاد يرتبط بعملٍ ما. وكذلك أيّ شيء آخر، حتّى لو لم يكن مرتبطًا بالاعتقاد بالله. فانظروا إلى هذه النقطة التي هي في صلب أيّة فلسفة فكريّة تلهم الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، إنّها هنا ﴿رَبَّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطلًا﴾. «ربّنا» يدلّ على الاعتقاد بالله. وهنا يحصل التسبيح ﴿سُبْحانَكَ﴾ وهو التنزيه عن كلّ عبثٍ ولغو. إذًا، هنا تكمن المسؤوليّة ويجب أن أطوي هذا الطريق وهذا يدلّ على أنّني في موقعٍ أساسيّ وقد وُجدت في مقابل هذا النظام العظيم والمدهش لأجل عملٍ ما. ولو أنّني أدركت موقعيّتي بصورةٍ صحيحة في هذا النظام العجيب، لكنّني لم أقم بالعمل بالصورة المطلوبة وكما يريد الله فإنّني سوف أقوم بتخريب هذا النظام لذلك يقول: ﴿سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّار﴾. فإنّ نار القيامة هي نارٌ واقعيّة تمثّل نيران النقمة والغضب الإلهيّين، وكذلك نقمة وانتقام عالم التكوين.

يجب أن تدقّقوا، لأنّ هذه كلّها مقدّمات من أجل أن نتلمّس حقيقة الإيمان الواعي في طيّات هذه الآيات. ويجب عليكم أيّها الأعزّاء أن تنتبهوا أكثر إلى كيفيّة انبعاث هذا الوعي من خلالها. فدقّقوا الآن، ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصار﴾، الخزي نصيب أهل النار، ولن يكون للظّالم أيّ عونٍ أو مدد، لا من عالَم التكوين ولا من أيّة يدٍ غيبيّة. فأولئك الذين يتحرّكون على طريق الظلم والكفر والنفاق ويسيرون على درب الباطل، محكومون بالزوال والفناء. ولن يكون هناك أيّ شيء في هذا العالم لدعمهم وحمايتهم.

﴿رَبَّنَا﴾، إنّ أولي الألباب الذين يتفكّرون في السماوات والأرض والذين فهموا وأدركوا أنّ هذا العالم لم يأتِ عبثًا ولم يُخلق لغوًا، يقولون أيضًا في

سياق ما يقولونه - وهذا مورد بحثنا - ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾. فإلى أيّ نحوٍ من الإيمان قد وصلوا؟ لقد دعاهم شخصٌ هنا إلى الإيمان فآمنوا، فهل حصل ذلك بهذه البساطة؟ كلّا، إنّ هؤلاء هم أولو الألباب أنفسهم أي الذين يتفكّرون. وهذا المنادي من الممكن أنّه بالظاهر نبيّ لكنّه في الباطن رسول العقل والتفكّر والإدراك الذي دعاهم إلى الإيمان بالله. فالمنادي لهم إلى الإيمان يناديهم على أساس الوعي والإدراك والشعور والمعرفة الكاملة من أجل الإيمان. هذا هو النحو من الإيمان الذي يدعو إليه الإسلام، إنّه الإيمان الواعي. حسنٌ، هذا هو المطلب الثاني.

المطلب الثالث يشير إلى أنّ المطلوب منّا بنظر الإسلام هو الإيمان الواعي، ولأنّ الله تعالى لا يتقبّل غيره ولا يعطيه أيّة قيمة أو أهميّة، فقد ذمّ **القرآن** وفي عدّة مواضع الإيمان الأعمى المقلِّد المتعصِّب والذي يفضي بالإنسان إلى السقوط. وقد ذكرنا نموذجًا من هذه الآيات ها هنا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ والحديث هنا عن الكفّار والرجعيّين. فتعالَوا واقتربوا لتفهموا ولتسمعوا ولتعرفوا ماذا يقول الرسول، فبماذا سيجيبون؟ إنّ هؤلاء بدلًا من أن يأتوا ويتفكّروا ويسعوا للفهم ويختاروا طريقهم بأنفسهم قالوا ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ لا نريد غير ما وجدنا عليه الآباء ونحن لن نتحرّك باتّجاه هذه المقولات الجديدة. فتسمية الكافر - بحسب قول بعض المحقّقين وفي القرآن - هي تعبير آخر للرجعيّين عبر القرون والأعصار. والنبيّ يمثّل في جميع الأماكن ذلك المتنوّر على صعيد الفكر في زمانه والذي يحمل كلامًا جديدًا وطريقًا جديدًا ويدعو إلى التجديد، لكنّ الكفّار والمخالفين والمتعصّبين والمقلّدين والمتحجّرين والرجعيّين هم الذين لا يتقبّلون هذا الطريق الجديد ولا يعجبهم. فقولهم إنّ الطريق ما سار عليه مَن قبلنا، فنحن لم نجد آباءنا وأمّهاتنا هكذا، وإنّما وجدناهم على طريقٍ مختلفٍ، ونريد أن ندرك ما

كانوا عليه ونعمل على أساسه.

فماذا يقول القرآن في جوابهم؟ ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ ، وقد وصل بهم الأمر في تقليد آبائهم ولو لم يكونوا يفهمون شيئًا أو يعلمون، وإذا لم يكونوا يعرفون التمييز بين الطريق الصحيح والخاطئ وبين الخير والشرّ، فهل ينبغي أن تقلّدوهم؟ انظروا كيف يذمّ الله التقليد ويلوم عليه.

الجلسة الرابعة: الإيمان وليد الالتزامات العمليّة ومصاحبها
الأحد، ٥ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٣٩].

(٣٩) سورة **الحجّ**، الآية ٧٨.

إنّ القضيّة هنا هي أنّ الإيمان وفق الثقافة القرآنيّة اليقينيّة ليس مجرّد أمرٍ قلبيٍّ صرف. صحيحٌ أنّ الإيمان والتصديق يرتبطان بالقلب، لكنّ **القرآن** لا يعترف بأيّ تصديق أو إيمانٍ أو قبولٍ أو أيّ تسليم كان. الإيمان المجرّد والإيمان القلبيّ الجافّ والفارغ هو الإيمان الذي لا يُشاهَد شعاعه في جوارح المؤمن وأعضائه؛ ومثل هذا الإيمان لا يتمتّع بأيّة قيمة بنظر الإسلام.

إنّ أوّل مؤمنٍ بالله هو الشيطان، وإبليس كان يعبد الله لسنوات مديدة قبل أن يهبط عبادُ الله المليئون بالادّعاء وأبناء آدم المدلّلون إلى هذه الأرض. وكان قلبه مركزًا لمعرفة الله، ولكنّه في ذلك الامتحان، وحين جاء وقت الاصطفاء والاختيار، حين ينبغي أن يتبلور الإيمان بكلّ أبعاده، وأثناء تعيين الطريق النهائيّ، لم ينفعه إيمانه؛ بل بقي في نطاق القلب. وأنا أقول إنّ الإيمان الذي يبقى محصورًا في القلب سوف يذوي ويجفّ. وقد تقول أنت: كلّا، بل يبقى. ونحن قد يشتبه علينا ذلك بقوّة ونقول إنّ الإيمان يبقى في أعماق القلب، إلّا أنّه ينحصر في نطاق القلب ولا يصل إلى اليد والرجل والعين والأذن والدماغ والأعضاء والجوارح والحياة والطاقات والإمكانات التي نتمتّع بها، مثل هذا الإيمان لا قيمة له بحسب الثقافة القرآنيّة. ونستطيع أن نختصر هذا المطلب بعنوانٍ عريض وهو ذاك العنوان الذي وضعناه على هذه الورقة التي وزّعناها عليكم وكتبنا عليها: **الإيمان المنتج**؛ الإيمان الذي يولّد العمل يكون مثل النبع الفيّاض. وهذا هو الإيمان الذي يتلازم مع الالتزام والعمل ويضع على عاتق المؤمن حمل المسؤوليّة.

وددت أن أحصي عدد الآيات التي ورد فيها مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ووجدت أنّها قد تكرّرت في عشرات الموارد بنفس هذا التعبير حيث تلازم الإيمان مع العمل الصالح، لأنّ الإيمان لوحده، أي الإيمان بلا التزام، لا يتلازم مع ذلك الإحساس بالمسؤوليّة، وهو أمر لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة؛ هذا هو منطق **القرآن**.

أولئك الذين افترضوا أنّ الإيمان أمرٌ يختصّ بنطاق القلب الإنسانيّ، وإن لم يكن في الإنسان أيّ تعهّد أو التزام بلوازمه، من الممكن أن يكونوا متواجدين بين المؤمنين؛ أولئك الذين كانوا يتصوّرون أنّ كون الإنسان مؤمنًا أي معتقدًا فقط من دون العمل أو السعي والمجاهدة حينها سينالون البشارات الإلهيّة التي ستكون من نصيب المؤمنين. أولئك كانوا يظنّون أنّ الذي يحقّق الفوز بالجنّة هو أمرٌ قلبيٌّ بحتٌ خالٍ من أيّ عمل ويوكلون أمر الحكومة على الأرض للقضيّة القلبيّة الصرفة.

أولئك يتصوّرون أنّهم باختصار لو حذفوا العمل فسوف يبقى من الإيمان شيء؛ ما عليهم إلّا أن يتفكّروا بدقّة في هذه الآيات والآيات الأخرى التي سيأتي تفسيرها فيما بعد وعشرات الموارد الأخرى في **القرآن** وفي كلّ مواضعه، ليروا أنّ الإيمان - وفق نظرة الإسلام - إنّما يكون ذا قيمةٍ إذا تلازم مع العمل وتحمّل المسؤوليّة والتكليف والتعهّد.

فلو لم تشعر بأيّ نوع من الالتزام، فعليك أن تشكّ في كونك مؤمنًا. والمجتمع الذي لا يعمل على أساس المسؤوليّات الإيمانيّة لا ينبغي أن يُسمّى بالمجتمع المؤمن. أولئك الذين سمعوا من القرآن ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤٠]، أولئك الذين استمعوا إلى هذا الوحي العجيب الصادر من **القرآن** ثمّ نظروا إلى الوقائع الخارجيّة فيما بعد، يرون أنّ المؤمنين بالقرآن ليسوا أعلى من الآخرين بل إنّهم أصبحوا أسرى ورهائن غيرهم، ويتعجّبون متسائلين عن وعد القرآن أين هو؟! وإذا لم يجدوا أيّ زمانٍ لإنجاز هذا الوعد الإلهيّ يبقون منتظرين لوليّ العصر صلوات الله عليه. فيجب تذكير هؤلاء بأنّ وعد الله حقٌّ؛ أجل، وهو سيتحقّق في زمن ظهور المهديّ الموعود صلوات الله عليه، وفي كلّ مكانٍ يتحقّق فيه الإيمان؛ لكن ذلك الإيمان الذي عدّه القرآن متلازمًا مع العمل، ولا ينفصل عنه. فالإيمان ليس مجرّد أمر قلبيّ.

---

(٤٠) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٩.

فلو كان التصديق والقبول بصدق كلمة الإيمان كافيًا، فإنّني أقول إنّ أوّل مؤمن بالنبيّ هو أبو لهب[٤١] أو الوليد بن المغيرة المخزوميّ[٤٢]. فلقد كان هؤلاءِ العرب الحاذقين يعلمون جيّدًا أنّ رسول الله لا يمكن أن يكذب، وأنّه على حقّ!، أتريدون دليلًا؟ دليله أنّهم كانوا يتآمرون فيما بينهم ويقرّرون أن يفضحوا الرسول، ثمّ يذهبون ليستمعوا إليه ، ويقولون لنرَ ماذا يقول ونفضح عيوبه. وعندما يذهبون ويجلسون كانوا يأتون في اليوم التالي فيقولون كلّا، إنّ هذا ليس كلام بشر، إنّ هذا كلام خالق البشر، ولقد كانوا يقبلون ويصدّقون أنّه وحيٌ من الله! ولكنّك أيّها السيّد، الآن وبعد مرور ١٤ قرن من ذلك التاريخ، لا تعتبرهما مؤمنَين. وأنا أقول لو لم يكن ذاك الرجل مؤمنًا فذلك لأنّ إيمانه وقبوله وتصديقه لم يكن متناسبًا مع الالتزام والتعهّد المتناسب مع الإيمان. فهل نحن مؤمنون، في حين أنّ تصديقنا لا يتلازم مع الالتزامات المتناسبة؟! فماذا تقولون أنتم؟

لو كان التشخيص والإيمان القلبيّ أو التصديق كافيًا لكان ينبغي أن نعتبر عمرو بن العاص[٤٣] أوّل شيعيٍّ في العالم. فهو قد شهد واقعة غدير

---

(٤١) عبد العزّة بن عبد المطّلب، عُرف بأبي لهب بسبب شدّة احمرار وجهه، وقد خالف النبيّ بعد دعوته بشدّة، وكان أثناء دعوة النبيّ يمشي خلفه ويدعوه بالكذّاب. ولأنّه لم يتمكّن من المشاركة في معركة بدر فإنّه مات غيظًا بعد سبعة أيّام من سماعه هزيمة المشركين. وقيل إنّه بسبب المرض الذي كان فيه بقيت جثّته على الأرض لمدّة يومين. وقد حمل أبناؤه جثّته إلى نقطة بعيدة عن مكّة، ورموه بالحجارة عن بعد حتّى دُفن، وقد نزلت فيه سورة **المسد** وهي تشير إلى عذابه الأبديّ معَ زوجتهِ.

(٤٢) كان من زعماء قريش النافذين ـ من قبيلة بني مخزوم ـ وعُرف بالمكر والبلاغة عند كلّ عامٍّ وخاصّ. وقد احتار زعماء قريش ماذا يطلقون على آيات **القرآن** بعد أن بُعث النبيّ ودعاهم، فذهبوا إلى الوليد، وعندما ذهب الوليد إلى النبيّ، وتلا عليه النبيّ الآيات الأولى من سورة **السجدة**، تأثّر الوليد بهذه الآيات ورجع إلى قريش حتّى ذهب إليه أبو جهل وحرّضه من جديد، فقال لقريش إنّ هذا الكلام يمكن أن يُقال عنه إنّه سحر. وقد أشارت الآيات ١١ إلى الآيات ٣٠ من سورة **المدّثر** المباركة إلى هذه الحادثة. ومات في السنة الأولى للهجرة.

(٤٣) عمرو بن العاص: اشتُهر بين العرب بالدهاء وكان في البداية من مخالفي الإسلام ومن أعداء رسول الله الأشدّاء في مكّة وكان قد بُعث من قبل زعماء قُريش على رأس جماعة من أجل إرجاع المسلمين من الحبشة وقُبيل فتح مكّة أسلم وبايع الرسول بشرط أن يعفي عن جرائمه السابقة. وقد تمّ فتح مصر في زمن عمر بقيادة ابن العاص وصار حاكمًا عليها، لكنّ عثمان عندما جاء عزله عن هذا المنصب، وفي زمن أمير المؤمنين تولّى معاوية وكان له دورٌ كبيرٌ في تثبيت حكمه؛ وقد عاد عمرو بن العاص مجدّدًا إلى مصر وبمقتل محمّد بن أبي بكر استلم مقاليد الحكومة وبقي هناك إلى آخر عمره، أي إلى عام ٤٣ للهجرة.

خم، أو أنّه سمع عنها ممّن شهدها، بينما نحن نقرأ أحداثها في الكتب بعد أكثر من ١٣ قرنًا ونيّف. ولِعمرو بن العاص أشعار في مدح الإمام عليّ (ع)[٤٤]، وفي لحظة الاحتضار ونزع الروح، وفي تلك اللحظات الحسّاسة والمصيريّة، يُظهر الندم ويقول إنّني قد بعت ديني لدنيا معاوية، وقد حاربت عليّ الذي كنت أعلم أنّه على حقّ. وبنظري، فإنّ عمرو بن العاص كان أعمق وأكثر علمًا من شيعة القرن الرابع عشر الهجريّ فيما يتعلّق بولاية أمير المؤمنين وقد صدّق بها ولكن هل يمكن عدّه من الشيعة؟! أنتم ستقولون كلّا. لماذا؟ ذلك لأنّ الاعتقاد بإمامة أمير المؤمنين يستلزم سلسلة من المسؤوليّات وأوّل هذه المسؤوليّات بأن لا يبايع معاوية بن أبي سفيان. فنجد عمرو بن العاص يعين معاوية ويقف إلى جانبه في محاربة عليّ، فلم يتمسّك بتلك المسؤوليّات التي تنشأ من التشيّع ولم يتحمّل التكاليف التي يستلزمها مثل هذا الإيمان؛ وهذا ليس من التشيّع.

هذا الكلام صحيحٌ، ولأنّه صحيح أرجع إلى ظاهره وأقول لأجل نفس هذا الدليل، هل يمكن لي ولكم أن نعتقد أو أن نطمئنّ بأنّنا شيعة؟ وهل نحن نعمل بالتزامات التشيّع؟ إنّ كلام القرآن في هذا المجال واضحٌ لا شكّ فيه ولا إبهام. وهو بصراحة ينفي الإيمان عن أولئك الذين لا يلتزمون بصورة مطلقة بالالتزامات الإيمانيّة.

بناءً عليه، فإنّ الإيمان المعتبر في الإسلام - وهو من الأصول الاعتقاديّة للإسلام والتشيّع - هو الإيمان الذي يولّد وينتج المسؤوليّة، إنّه الإيمان الذي يتلاءم مع هذه الالتزامات العمليّة، وإذا لم يكن كذلك فلا ينبغي أن نتوقّع منه أيّة نتيجة ولا ينبغي أن نتوقّع النصر في الدنيا والأمن فيها، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٤٥]. هذه الآية وعشرات الآيات الأخر هي شاهدٌ وتفي بالمقصود ولا يتّسع المجال

(٤٤) والقصيدة تحت عنوان الجلجلية التي أنشدها عمرو بن العاص في جواب معاوية وذكرها الأميني في كتاب الغدير، «وأين الحصى من نجوم السما وأين معاوية من عليّ».

(٤٥) سورة **الأنعام**، الآية ٨٢.

هنا لذكرها. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي إنّهم لم يمزجوا إيمانهم بالظلم فسوف يكون لهم الأمن.

إذًا، لا أمن لأولئك الذين يمزجون إيمانهم بالظلم، فذاك الإيمان الذي لا يتلازم مع المسؤوليّة لا يؤدّي إلى نصر المؤمن ولا يضمن انتصاره، ولا يقدّم له النصر الإلهيّ ونصر ذرّات الطبيعة والتكوين، ولا يمنحه السعادة والفلاح في الدنيا، وفي خلاصة الكلام لا يمنحه جنّة الدنيا والآخرة.

كما ونجد أنّ التصوّرات الجزافيّة الناشئة من حبّ الراحة وطلبها تلقّننا عكس هذه القضيّة. هناك خصلةٌ معروفةٌ في الإنسان وهي أنّه يسعى دائمًا نحو الأعمال الأكثر راحةً وسهولةً. ففيه نزعةٌ نحو التساهل، فلو خيّرتموه بين أمرين أو عملين فإنّه سيختار الأكثر سهولةً والأقلّ سعيًا وجهدًا ومؤونةً، هذه هي خاصّيّة الإنسان، وهكذا هم البشر في العادة. هذه الصفة وهذه الخصلة البشريّة وهذه الخاصّيّة تقول لنا اقبل بالأسهل واسلك الطريق الأقلّ مؤونةً وسعيًا وجِدًّا. فمن جانبٍ، نجعل الإيمان الدينيّ مقولة محدّدة لأجل الحفاظ على التساهل وإبقائه، ولكي لا تضيع الجنّة، فنعمل على شيء ما ونبتكر معادلة، أو معادلات تنتج ذهاب الإنسان الكسول العاطل إلى الجنّة، ونصرّ على هذه المعادلات ونتمسّك بها ولا نفهم شيئًا في النهاية، وعندما نُحرم من الجنّة، ندرك عندها أنّ تلك المعادلات كانت خاطئة!. وأنا أقول يجب علينا أن نعيد النظر ونرى هل أنّ هذه المعادلات صحيحةٌ في الواقع أم لا؟

إنّ **القرآن** هو المتن القطعيّ الذي لا يعرض عليه أيّ خلل، وكذلك مئات الروايات صحيحة السند والمحكمة. ويقول الإمام علي عليه السلام في رواية بما مضمونه أنّه لن يتمّ الوصول إلى شفاعتنا إلّا بواسطة السعي والجدّ والجهد، بينما نحن نريد بهذا الكسل وهذا التقاعص والتحسّر على الماضي والمستقبل وقلّة النخوة ـ لا شكّ بأنّ التحسّر جيّدٌ، ولكن ليس ذلك الذي يكون فاقدًا للنّخوة ـ فهل نريد بهذه الحالة السلبيّة المنحطّة الفاقدة

لأية خاصّيّة القعود، على أمل نيل الشفاعة؟ في حين أنّ الإمام (ع) نفسه، وطبق هذه الرواية، يقول إنّ شفاعتنا تنال أهل الجدّ والجهد والسعي. وهذا مقابل تمامًا لما هو موجودٌ في أذهاننا، ويوجد من قبيل هذه الرواية ما شاء الله.

كان الإمام السجّاد (ع) مشغولًا في منتصف الليل بالعبادة في المسجد، ومشغولًا بالمناجاة والدعاء. فهذا الإنسان الذي كان كلّ وجوده عبارة عن السعي على طريق الوصول إلى حكومة الحقّ والحقيقة - وفق التحليل الصحيح لحياته - كان في منتصف الليل عالمًا واحدًا من السعي على طريق العبوديّة والخضوع في مقابل الله، وكان يذرف الدموع ويبكي ويناجي، وله مناجاةٌ مدهشة لا مجال الآن لذكرها، وفي تلك الحالة العجيبة يأتي شخصٌ ساذجٌ ويقول: «يا ابن بنت رسول الله، لماذا تتعب نفسك هكذا؟ وأبوك هو مَن هو، وأمّك وجدّك، كلّهم عباد الله المصطفون، فاترك البكاء لنا، فأنت حفيد النبيّ وابن عليّ وابن الحسين وابن فاطمة الزّهراء، فلماذا تبكي؟» عندها يقول الإمام لهذا الرجل: ماذا تقول؟ دع عنّي حديث أبي وأمّي وجدّي[٤٦]؛ وهو يريد أن يدافع عن تلك الأطروحة والنظريّة، نظريّة البكاء والعبادة والدعاء والخشوع والخضوع في مقابل الربّ المتعال من أجل تصفية الروح ومن أجل تقوية العزم ومن أجل المزيد من التوكّل على الله لا من أجل التخدير، ومن أجل أن يزيل هذا الاشتباه من ذهن هذا الشيعيّ الساذج، ثمّ يكمل قائلًا: إنّ الجنّة للمطيعين. فهذه هي الأطروحة الإسلاميّة والشيعيّة في مجال الإيمان والعمل.

فلماذا أصرّ وأؤكّد على هذه القضيّة؟ ذلك لأنّه جرى العمل ولسنوات مديدة وطيلة هذه القرون على ذهنيّة المسلمين من أجل إقناعهم بأنّ العمل ليس ضروريًّا أو مطلوبًا ليكون المرء مسلمًا، ولأجل إفهامهم بأنّ ما يلزم

---

(٤٦) الإمام زين العابدين (ع)، **الصحيفة السجّاديّة** (قم: مؤسّسة الإمام المهدي (عج)، الطبعة ١، ١٤١١هـ)، الصفحة ١٧٨.

ليكون الإنسان مؤمنًا هو القلب الطاهر لا العمل الصالح. لقد أعانت نزعة الراحة والتساهل هذه الموجودة فينا، الأيادي الخائنة والعميلة، وبكلّ هذه الادّعاءات الرنّانة عندنا، لأنّنا نميل إلى الحصول على جنّة الله، من خلال عملٍ بسيط. كما أعان الجاهلون غير المغرضين، الذين لم يكونوا سوى جاهلين، على هذا الفهم والاستنتاج الخاطئ. ومن بعد النبيّ وبعد مدّةٍ زمنيّة قصيرة، وُجد هذا الفكر وتمّ الترويج له.

إنَّ معاويةً بن أبي سفيان شخصيّةٌ عجيبةٌ، فهل وجدتم مَن هو عديم دينٍ وأسوأ أكثر منه؟! فمن هو أسوأ منه على مدى ذلك التاريخ وفي تاريخ صدر الإسلام؟! نجد معاوية ذات يوم يوصي أقاربه قائلًا: احضروا علبتين صغيرتين وضعوهما داخل كفني. فسألوه ما هي هذه الأمور؟ قال: إنّ في أحدها قطعةً من لباس النبيّ. وكان رسول الله يقصّ شعره أو أظافره وسقط منها بعض الذرّات والأظافر وقد قمت بجمعها فضعوها في كفني حتّى يغفر الله لي. فأيّها الذكيّ، إنّ معاوية كان يأمل بشفاعة النبيّ ويسعى نحوها ويرجوها، ولكن عن أيّ طريق؟ عن طريق الحصول على بعض قطع الأظافر والشعر من رأس النبيّ ولحيته. بارك الله! أحسنت! فما دام الأمر سهلًا، وما دام الأمر لا يكلّف شيئًا، وما دام الأمر في مصلحته فهو يستمع إلى **القرآن**.

على كلّ حال، مرّت سنواتٌ وسنواتٌ مديدة من العمل على أذهان الناس حتّى باتوا يقولون إنّ الإسلام بدون العمل والإيمان بدون العمل، وإنّ المحبّة في القلب والإيمان والتصديق، لا في العمل والحركة والسعي والأثر. لقد أرادوا أن نصدّق كلّ هذا عبر السنين. وقد كان **القرآن** يصدح بندائه طيلة الوقت، وكان نداؤه حيًّا وطريًّا حيث يقول: ﴿وَما أُولئكَ بالْمُؤْمنين﴾، فالذين لا يقومون بهذه الأعمال هم ليسوا بمؤمنين ولا إيمان لهم. فالمؤمنون وأولئك الذين يقفون معكم والذين يشملهم لطف الله والأخوّة الإسلاميّة هم الذين يتحرّكون في سبيل الله طبق الإيمان والالتزام والسعي والعمل، هذا هو

منطق **القرآن**، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٧). فلو قمتم بهذه الأمور سيشملكم الفلاح والتوفيق والنجاح، أمّا إذا لم يكن مع ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فهل سيتحقّق الفلاح والنجاح؟ أنا أترك الجواب لكم.

﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ (٤٨)، فماذا تفعلون من أجل الحصول على مدخول يوم كامل؟ وما هي المساعي التي تبذلونها والجهد الذي تقومون به؟ انظروا بنفس هذه النظرة إلى السعي في سبيل الله. فكلّ هذا العمل يكون في المتن، أمّا العمل في سبيل الله فنجعله على الهامش! إنّ وضع حياتنا بشكل عامّ وخريطة حياتنا العامّة هي هكذا، نجعل جميع الأعمال في المتن، التعلّم والتعليم والحصول على المال والتعب، ولا أعلم، لعلّه الرياضة أيضًا، كلّها في صلب الحياة، ويكون العمل لله في الحواشي والهوامش، وربّما يكون موجودًا وقد لا يكون. ولكن لو أنّكم أمعنتم النظر، فإنّ حجم ذلك السعي الذي نقوم به لله وكيفيّته وعمقه وعظمته وثباته ينبغي أن يكون متناسبًا مع عظمة الله تعالى وينبغي أن يكون أعظم وأثبت وأكبر من كلّ المساعي وأكثرها جهدًا وجدًّا.

﴿وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ﴾، فيا أهل الإسلام، إنّ الله تعالى قد اصطفاكم واختاركم، فماذا يعني ذلك؟ أي إنّه أخرجكم من بين كلّ هذه الشوائب واصطفاكم واختاركم واجتباكم وفضّلكم، فهل تكون الجنّة لأولئك الذين يخطئون ويذنبون ويعملون خلاف الأوامر الإلهيّة؟ هذا هو الكلام الذي كان اليهود يدّعونه لأنفسهم. لقد أخطأ هؤلاء، وكلّ مسلم يفكّر بهذه الطريقة يخطئ أيضًا. فالقرآن يعلن، وبلهجة فيها الكثير من التوبيخ والطعن، أمام اليهود وأولئك الذين يتصوّرون أنّهم

(٤٧) سورة **الحجّ**، الآية ٧٧.

(٤٨) سورة **الحجّ**، الآية ٧٨.

أحبّاء الله وأولياؤه، بل أبناء الله، أنّ كلّ هذه المحبّة والولاية إنّما تكمن في العمل بأوامر الله. أجل، لقد اخترناكم، فبني إسرائيل قد تمّ اختيارهم في السابق، ويا أمّة الإسلام قد اختاركم الله، لكنّ بني إسرائيل تمّ اختيارهم قبل الإسلام، وكلا الاختيارين من نفس النوع، أي بمعنى اختيار الأكثر استعدادًا لأجل أعظم الأعمال.

فلو نظرتم إلى عشرة أشخاص منكم ورأيتم أنّ ذاك الذي يظهر على وجهه العزم وعلى بدنه الجهوزيّةً وعلى وجنتيه الحيويّة وفي قبضته القوّة، وفي عضده وعاتقه الثبات والمنعة، تقولون: أيّها السيّد إنّ عليك أن تحمل هذا الحمل الثقيل ونحن قد اخترناك للقيام بهذا العمل، فيصبح هذا الشخص في موقع الصدارة والريادة. فلو حمله وتمكّن من القيام به، أي إنّه كان صاحب هذه الإرادة - بالتأكيد لأنّه كان قادرًا على ذلك حتمًا - فعزم ورفع هذا الحمل، فإنّه عندئذ يتفوّق على أقرانه، ويمكن عندئذٍ أن يُعدّ مصطفًى ومختارًا. أمّا إذا لم يرفعه فإنّه سيكون أكثر خزيًا وندامةً وسوءًا من غيره، فيُقال له: أيّها المسكين! لم يتمكّن الآخرون، ونحن لم نأمرهم، لكنّنا قلنا لك وأنت لم تفعل. لقد كان اختيار واجتباء الأمّة الإسلاميّة مثل اختيار بني إسرائيل، والأمر كان من هذا القبيل. بنو إسرائيل في زمانهم، والمسلمون في زمانهم، الكلّ كانوا أكثر الأمم استعدادًا من أجل تحمّل أمانة الإسلام وقيادة البشر وهدايتهم، لهذا حُمّلوا هذه الأمانة، فهل حملوها أم لا؟ لو حملوها لكانوا أوصلوها إلى مقصدها، وبالتأكيد لكانوا أفضل وأليق المسلمين وأكثرهم اصطفاءً واجتباءً، أمّا لو لم يفعلوا ولم يحملوا هذه الأمانة فإنّهم سوف يكونون على الحال التي كان عليها اليهود عندما لم يؤدّوا تلك الأمانة، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾[٤٩] هذا كان لدنياهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وهذا لآخرتهم.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يدلّ على الاختيار من أجل حمل هذه الأمانة. ﴿وَمَا جَعَلَ

(٤٩) سورة **البقرة**، الآية ٦١.

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وما كان ليحمّلكم فوق طاقتكم ويضغط عليكم ويوقعكم في المَضائق والصعاب، فهذا الحمل ليس ثقيلًا جدًّا ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ فيه الكثير من المشقّات والعذاب، بل يمكن حمله. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهذا هو الدين والنهج الذي كان لأبيكم إبراهيم. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[٥٠]، فقد كان هذا في دعاء النبيّ إبراهيم وأشير إليه في سورة **البقرة**. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أعطيناكم هذا الحمل وقمنا باصطفائكم واجتبائكم، فلأجل أيّ شيء؟ ولأيّة غاية؟ ولأجل أيّ عمل ولأيّ هدف؟ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فالمسؤول المباشر عنكم هو الرسول وأنتم مسؤولون عن كلّ البشريّة، ليكون الرسول شاهدًا عليكم ومراقبًا وناظرًا، ولتشهدوا أنتم على البشريّة وتراقبوها، فأنتم تمسكون بزمام البشريّة وتديرونها، وأنتم قادة هذه القافلة، فلا تغرقوا يا سادة القافلة بالنوم.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وحيث كان الأمر على هذا النحو وبما أنّ مسؤوليّتكم ثقيلة ولأنّكم تُبعثون من جانب الربّ المتعال في مهمّة صعبة، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. ها هو التكليف وهذه هي المسؤوليّة، فهل يوجد إيمانٌ جاف وفارغ؟ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (وقد ذكرنا معنى أقيموا الصلاة فيما سبق) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وتوسّلوا إلى الله ودينه والجأووا إلى الله توكّلوا عليه ولا تخشَوا أحدًا ولا تخافوا من أيّة قدرة، وعندما تنسدّ الطرق أمامكم، فلا تيأسوا من لطف الله ونصره ومدده، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ لأنّه فوقكم وحافظكم ومعكم.

فماذا يعني ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ وما معنى ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾؟ وماذا يعني عليّ مولى المؤمنين؟ وماذا يعني أنّ على المؤمنين أن يتولّوا عليًّا؟ فهذه

(٥٠) سورة **البقرة**، الآية ١٢٨.

الولاية وهذه الكلمة مليئةٌ بالمعنى والمحتوى المدهش. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ ما أحسن هذا المولى وما أحسن نصرته.

وهنا يوجد قسمٌ آخر يتعلّق بالالتزامات الاجتماعيّة، فالالتزامات الإيمانيّة من نوع الصلاة والزكاة والاعتصام بالله قد تكرّرت من حيث النوع في الآيات الموجودة في آخر سورة **الحجّ**. ويوجد نوع آخر من الالتزامات الإيمانيّة تأتي من زاوية أخرى وتُطرح في مثل هذه الآيات أيضًا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، فماذا تعني الهجرة؟ هل هي الانتقال من طهران إلى مشهد مثلًا؟ هل هي الانتقال من مدينة إلى أخرى فقط؟ كلّا. أوّلًا، الهجرة هي في معنًى من المعاني عبارة عن غسل اليد كلّيًّا من كلّ شيء من أجل هدف، ومن أجل الانتماء إلى المجتمع الإسلاميّ، وقبول الالتزام والانتماء إلى تشكيلات المجتمع الإسلاميّ. فإذا شخصتم من مكّة وخرجتم منها ولم يعد لكم فيها أيّ متاع أو ملك يعطيكم الحيثيّة والجاه والثروة، ولم يعد لكم فيها أي وجود، وتمّت مصادرة أموالكم والسيطرة عليها من قبل الطغاة من زعماء مكّة، وإذا لم تسلم زوجتك فعليك أن تنساها، وإذا بقي آباؤك وأبناؤك هناك فإنّهم سيتحوّلون إلى أشدّ الناس عداوةً لك، هذه هي الهجرة. أولئك الذين كانوا يهاجرون كانوا يتقبّلون بكلّ رحابة صدرٍ كلّ هذه المحروميّة والخسائر.

ومن جانب آخر، فإنّ الهجرة تعني التحمّل من أجل بناء ذلك القصر العظيم في المجتمع الإسلاميّ. لاحظوا الآن، يوجد عمارة يتمّ بناؤها، وافرضوا أنّه كان من المقرّر أن توضع آلاف القطع الأخرى من الآجر فوق بعضها البعض، وأن يقوم كلّ واحد بحمل قطعة والمجيء بها إلى هنا من أجل أن تُبنى؛ فلو وضع كلّ إنسان قطعةً واحدةً لتمّ بناء هذا القصر المهيب. فقد كان المجتمع الإسلاميّ، الذي وُجد في المدينة، محتاجًا إلى العناصر المؤمنة الفعّالة المليئة بالسعي والقدرة، وإلى أصحاب السابقة والفهم للإسلام، وإلى المحبّ والمعتقد بهذا الطريق، وإلى القلب المليء بالإيمان.

فذاك الذي كان يهاجر من مكّة كان يضحّي بالأنس والمحبّة والذكريات والراحة والعيش والرفاهية ويأتي إلى المدينة؛ فقد كان الانتقال من مكّة إلى المدينة، بالنسبة لهذا الإنسان، خطوةً كبرى على طريق ذلك المجتمع بحسب قدرته ومساهمته، لهذا كان الأمر ذا قيمة ودور مصيريّ.

انظروا ماذا تقول هذه الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾، أي قدّموا الملجأ لهؤلاء الذين فقدوا أوطانهم وشُرّدوا من بيوتهم، ﴿وَنَصَرُوا﴾، فإنّ كلّ هؤلاء ﴿أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾، يشكّلون جبهةً واحدة ومعسكرًا وحدًا، فإنّهم جميعًا عنصرٌ واحدٌ، وكلّهم يمثّلون أعمدة وأركان وأسقف وجدران هذه العمارة، «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ بِمَنْزِلَةِ الْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[٥١]. فهل رأيتم كيف تجتمع قطع الآجر هذه فوق بعضها؟ وتتّحد لتشكّل السقف، فإنّ كلّ قطعة هي هذا المؤمن، وكلّ مؤمن هو هذه القطعة التي تتّصل بغيرها لتشكّل كلّ هذا البناء، ولو سقطت قطعةٌ واحدةٌ منها لتساقطت البقيّة وهي قطعةٌ واحدة لكنّها تشدّ ما بقي من القطع حتّى تشكّل جميعًا بنيانًا مرصوصًا، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، دقّقوا هنا جيّدًا. هؤلاء مؤمنون بقلوبهم ﴿وَلَمْ يُهاجِرُوا﴾، أي لم يقطعوا العلقة القلبيّة ببيوتهم المملوكة المشجّرة المريحة، وحتّى بيوتهم العاديّة أيضًا ـ ﴿وَلَمْ يُهاجِرُوا﴾، فلم يعملوا بمثل هذا الالتزام الإيمانيّ، فكيف يكون حالهم؟ إنّ الله تعالى يخبر عنهم قائلًا: ﴿ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾، فلا يوجد علقة ولا رابطة حتّى يهاجروا ويعملوا وفق الالتزام الإيمانيّ. فالإيمان الجافّ والفارغ لا يؤثّر في الدنيا يا أخي، ولا يكون منشأ أثر في المجتمع الإسلاميّ؛ ولهؤلاء أيضًا حساب في الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(٥١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٨، الصفحة ١٥٠.

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ، فمن يكون غير هؤلاء؟ إنهم المؤمنون المدّعون!، هذا هو مفاد الآية.

الجلسة الخامسة: الإيمان والالتزام بالمسؤوليّات
الإثنين، ٦ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٥٢].

(٥٢) سورة **النور**، الآيتان ٥١ و٥٢.

في مجال البحث حول الإيمان، المسألةُ المهمّةُ التي يجب على الفرد المؤمن الالتفات إليها هي أنّ التزاماته ومسؤوليّاته ليست كما يحلو له وكما يحبّ. فالأمر لا يكون على النحو الذي يُعدّ المرء نفسه مؤمنًا كما يريد، ويفعل ما ينسجم مع مصلحته الشخصيّة وما يراه مناسبًا من تجاوزٍ وخروج عن الحدّ، فيستعمل اسم الإيمان والعمل أينما وجد أنّ الإيمان والتظاهر بالعمل يوصله إلى مراده، بينما يجد العكس من ذلك بحيث لا يكون الإيمان والعمل لمصلحته ونفعه الشخصيّ، ولا يحقّق له مصالحه العدوانيّة الظالمة، فإنّه يجتنب اسم الإسلام والإيمان والعمل بالالتزامات الإيمانيّة. فهذه الصفة منتسبة للمستغلّين - الذين ذُكروا في **القرآن الكريم** بأشكالٍ مختلفة - قلنا إنّ هذا هو حال الانتهازيّين. وإنّ جميع أهل الدنيا هم هكذا.

فمن هو الذي يسعى للإضرار بنفسه؟ إنّ ما نقصده هنا بالمستغلّين المعتدون هم أولئك الذين يكونون مستعدّين للتضحية بالمصالح الإيمانيّة من أجل منافعهم الشخصيّة. هذه سيرتهم، يتحرّكون باسم الإيمان ويتظاهرون بالعمل إلى أيّ حدّ يريدونه ويشتهونه، وعلى أساس تحقيق مصلحتهم الشخصيّة؛ مثل هؤلاء الأفراد بنظر الإسلام ليسوا بمؤمنين، والآية القرآنيّة تصرّح بأن لا إيمان لهم.

بناءً عليه، فنحن في البحث في مجال الإيمان - وهو أحد أوّل الأبحاث التي تُطرح وقد طُرحت في سلسلة المعرفة الفكريّة للإسلام - قد وصلنا إلى هذه النتيجة وهي: إنّ الإيمان هو الذي يكون متلازمًا مع المسؤوليّة. والإيمان الذي لا يكون كذلك، ويخلو من تحمّل المسؤوليّات، وبتعبير **القرآن** «العمل الصالح»، هو ليس بإيمان. ولا يمكن أن تترتّب نتائج على الإيمان المجرّد والجافّ والذهنيّ؛ هذا بالإضافة إلى أنّ هذه الحقيقة يجب أن تكون دائمًا أمام الأعين وهي أنّ الالتزام دائمٌ وعامّ.

ذاك المؤمن، الذي يريد أن يبقى مؤمنًا وينال ثمار الإيمان، يجب أن يشعر بالالتزام والمسؤوليّة تجاه أحكام الله كلّها، وأن يكون شعوره هذا

دومًا على هذا النحو. ذاك الذي يعتقد بأنّ الإيمان بالله وبالرسالة يستلزم المسؤوليّات، فإنّ هذه المسؤوليّات تقتضي أن يكون الجميع عبيدًا لله؛ ولهذا، ينبغي أن يكون سعيه ورغبته أن يصبح الجميع كذلك مهما أمكن. فالإيمان بالنبيّ والشهادة والإقرار بالرسالة يستلزم هذه المسؤوليّة، وهي تتبّع النبيّ والسير على خطاه. فلو أقررت أنا بهذا المعنى وأذعنت وتقبّلت هذه المسؤوليّة فلا يكون هناك معنًى لأن تنتفخ أوداج رقبتي وأضمّ قبضتي وأتظاهر في الواقع أنّني مسلم عندما أواجه ظاهرةً صغيرةً خلاف طريق رسول الله فأغضب وأغتاظ. أمّا عندما أواجه ظاهرةً أكبر تكون أكثر إيلامًا، فإنّني أتحرّك خلاف مسير النبوّة وجهة الرسالة وأنسى مسؤوليّتي. قيل: أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة[٥٣]؛ مقابل الضعفاء أسدٌ، يزأر مقابل الأشخاص السيّئين، الذين هم قليلي السوء، لكنّه عندما يقابل الأشرار الكبار الذين يرتكبون العظائم فإنّه لا يواجههم، بل ينحني أمامهم. وهذا الشعر العربيّ يُستعمل كمثلٍ شائع، فيُقال إنّه عندما يصل إلينا يصبح أسدًا لكنّه عندما تقع الحروب مع الأعداء الأشدّاء المسلّحين، فإنّه يصبح كالنعامة. فهل أنّ للنعامة مخالب وأنياب حتّى تكون في حرب مع أحد؟! إنّ الالتزام ليس موسميًّا أو مقطعيًّا، فالالتزام عامّ وشامل ودائم.

يذكر **القرآن الكريم** اليهود؛ أولئك الذين كانوا يقولون دفعةً واحدة إنّ علينا أن نحافظ على إخواننا - ويقصدون بذلك اليهود الآخرين -كأعزّاء لنا، ولكن عندما تتطلّب مصالحهم الشخصيّة أن يقتلوا إخوانهم ويأخذوهم أسرى ويبيعوهم ويقبضوا عليهم الأموال فإنّهم لا يتورّعون عن ذلك، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم في مقام توبيخ بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، تجدهم يؤمنون عندما لا يكون هناك ما يجلب وجع الرأس، ولكن نجدهم يكفرون ويتركون الدين عندما تكون الأمور على منوالٍ آخر. فهل يمكن التفكيك بين كلامين

(٥٣) ابن طيفور، **بلاغات النساء** (قم المقدّسة: مكتبة بصيرتي، لا تاريخ)، الصفحة ١٢٩.

وأمرين يصدران من مبدإٍ واحدٍ وينبعان من نقطةٍ واحدة؟!

وفي حديثٍ معروفٍ لإمامنا العظيم، الإمام الباقر، صلوات الله وسلامه عليه، الذي هو أوّل حديثٍ في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتاب **الوافي** الشريف الجامع للكتب الأربعة الأساسيّة للشيعة وجمعه المرحوم الفيض الكاشاني[٥٤]. وبالطبع هذا الحديث قد ورد في كتب الشيعة المعتبرة أخرى. وقد رأيته قبل عدّة سنوات ولم أراجعه مرّةً أخرى. هو يشير إلى هذا النوع من الناس، أولئك الذين يلتزمون بالصلاة والصيام التي ليس فيها أيّة مشاكل أو متاعب، ولكنّهم إذا واجهوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يحمل معه وجع الرأس ويكون بالظاهر مضرًّا بمصالحهم فإنّهم لا يعتنون به. فهنا نجد الإمام عليه السلام لا يقول إنّ هؤلاء مؤمنين أو غير مؤمنين، ولا يقول إنّهم فاسقين أو منافقين، لكنّ الآية القرآنيّة تصرّح أنّ أولئك عندما تكون مصالحهم ومنافعهم الشخصيّة في البين فإنّهم لا يريدون الدين وليسوا بمؤمنين.

أولئك الذين إذا كان الحقّ إلى جانبهم في قضيّةٍ ما، يذعنون لحكم النبيّ وقضائه، أمّا عندما لا يكون الحقّ إلى جانبهم ويعلمون أنّه سيحكم عليهم، فإنّهم لا يخضعون ولا يقرّون بقضاء النبيّ وحكومته. يتساءل الله في **القرآن** عنهم: هل هم يخافون أم أنّهم يشكّون؟ هل هم يظنّون ويشكّون بحقّانيّة الدين وصحّته؟ والشقّ الآخر للآية هو: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾. وهذا الأمر يكون في حدّ الكفر: أم أنّهم يخافون من أن يظلمهم الله ورسوله. ففي جميع القضايا والمسائل وفي كلّ زوايا وتفاصيل الحياة يكون الإنسان المؤمن ملتزمًا، لا حين يكون الأمر لمنفعته ومصلحته.

---

(٥٤) محمّد الكاشاني، (١٠٠٧ -١٠٩١ ق.) الملقّب بالملّا محسن الفيض، الفقيه المحدّث المتكلّم والفيلسوف الشهير. استفاد من محضر أساتذة، كالملّا محمّد تقي المجلسي والشيخ البهائي والميرداماد والمير فاندرسكي، والملّا صدرا، الفيلسوف المعروف. وبعد رجوعه من سفر الحجّ، صاحب الملّا صدرا في قرية الكهك ولازمه. وبعد وفاة الملّا صدرا، رجع الملّا محسن إلى كاشان واشتغل بالتدريس والتعليم. من آثاره تدريس الصافي، وكتاب **الوافي**، وعلم اليقين في أصول الدين، و**المحجّة البيضاء**.

وهذا معاوية بن أبي سفيان، عندما يجد الأمر ضروريًّا له يرفع المصاحف على الرماح. وكلّكم سمعتم وعلمتم قصّته. فعندما يكون الأمر لمنفعته يتحدّث عن **القرآن** والصلاة والتديّن، وعندما يريد أن يستقطب أو يستجلب قلب شخصٍ محبٍّ لعليّ إلى نفسه، فإنّه يتحدّث عن فضائل أمير المؤمنين. وإذا ذُكرت فضائل عليّ عنده حينها نجده يذرف دموع التماسيح! فكم قد سمعتم أنّ معاوية كان في مجلسٍ وفيه عبد الله بن عبّاس وغيره، ثمّ يقول مثلًا لفلان ابن فلان: ماذا تعرف عن فضائل عليّ، فيقول له: وهل تعطيني الأمان إن أنا تكلّمت؟ فيقول: نعم لك الأمان، ثمّ بعد ذلك يجري الحديث ويدخل هو أيضًا في موجة البكاء![٥٥] فعندما يناسبه الأمر نجده يتحدّث عن حبّ عليّ، وعندما يريد أمرًا ما، فإنّه يعرّف نفسه على أنّه عبدٌ من عبيد الله الخواصّ، وعندما يضطرّه الحكم وتحتاج سلطته إلى استقطاب مجموعة من المسلمين، فإنّه يحافظ على عواطفهم ولا يجرح مشاعرهم، فيتحدّث عمّا يحبّه الناس أي **القرآن** والإسلام.

هذه مواقف يكون الدين فيها لمصلحته ومنسجمًا مع منافعه الشخصيّة وأهوائه المفرطة. أمّا عندما يكون الدين والتمسّك بأحكامه مضرًّا له، فإنّه لا يتعرّف على الدين أبدًا، كأن يكون حساب العدل ورعاية العدالة الاجتماعيّة، ومراعاة الشرائح المظلومة والمحرومة، ومساواة أقاربه وحواشيه لأجل الدين ولأجل الإسلام، والارتقاء بالمستوى الفكريّ للناس الذي هو هدف النبوّات والرسالات والبعثات ـ فعندما يأتي دور كلّ هذه الأمور، لا يكون لمعاوية أدنى اطّلاع على الدين ولا يشعر بأيّ التزام تجاهه. وإنّني أضرب معاوية مثلًا لكي نتمكّن أنا وأنتم من تطبيق ذلك على أنفسنا في هذ المجال، ونجعل أنفسنا على محكّ هذه التجربة. فذلك مثلٌ ضربته عن شخصٍ معروفٍ، سوؤه وشرّه واضحٌ ومسلَّمٌ به لدى الجميع.

---

(٥٥) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، كتاب الفتن والمحن ـ أبواب ما جرى بعد قتل عثمان ـ باب نوادر الاحتجاج على معاوية.

أريد أن أقول لو كان المقرّر أن نتقبّل مقدارًا معيّنًا من المسؤوليّة تجاه الدين، ونرفض البعض الآخر، ومن ثمّ نعدّ أنفسنا مؤمنين، فلنجعل معاوية أوّلًا هو المؤمن، لأنّ معاوية كان كذلك، كان يظهر التمسّك الشديد بالدين في بعض الموارد. ألم أقل مرارًا في الأبحاث إنّ معاوية كان يصلّي أوّل الوقت ويؤمّ الجماعة ويدعو إليها؟! والكلّ يعلم أنّ فضيلة صلاة الجماعة بالنسبة لإمام الجماعة هي أكبر من فضيلة المأمومين؛ فحجم الثواب الذي أعدّه الله لإمام الجماعة هو أكبر ممّا أعدّه للمأمومين، بحسب الروايات الموجودة في هذا المجال، وقد كان معاوية إمامًا للجماعة.

حسنٌ، في هذه الصورة يكون الدين جميلًا جدًّا ولذيذًا وجيّدًا وغير مضرّ. يجذب القلوب بالمحبّة والمشاعر والتوجّه، كلّ هذه أمور جميلة. أمّا هذا الدين الذي يقول إنّ النبيّ قد بُعث من أجل تعليم الناس وتربيتهم ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٥٦]. فقد بعث الله نبيّه لكي يعلّم البشريّة ويرتقي بها ويزيد من قوّة تفكيرها وعقولها ـ وإنّ هذا الدين يحارب أيّ شيء يمكن أن يواجه العقل في الناس، ويقف أمام أيّ اعتداء على وعي الناس وإدراكهم وعقلهم وفهمهم، فهو لا يسمح لبقاء أيّ عاملٍ يمنع الناس من أن يفكّروا ويفهموا ويدركوا. هذا هو الدين.

ذاك الدين الذي قيل إنّه أفيون الشعوب ومخدّرها هو شيءٌ آخر. فلا توجد في قرآننا علائم ذلك الدين، كما أنّها لا توجد في عمل نبيّنا وأعمال قادتنا. إنّ الإسلام الذي يحارب الكفر يحارب ذلك النوع من الدين. يقول أمير المؤمنين (ع)، هذا القائد الإسلاميّ الكبير: إنّ الله قد بعث الأنبياء من أجل استخراج كنوز العقل والفهم من باطن الناس وإثارتها وبعثها، «ويثيروا لهم دفائن العقول». فكلّ ما يجعل هذه الدفائن مدفونةً أكثر ويدسّ هذه القوى العقليّة والفكريّة للبشر تحت التراب أو تحت أكوام

(٥٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.

العصبيّة أو التصوّرات الباطلة أو القمع أو الإرهاب أو أيّ شيء آخر، فإنّ أيّ عمل يكون حاله هكذا، هو في المقابل تمامًا لفلسفة بعثة الأنبياء، ولا يوجد فرق بين شيء وآخر طالما أنّ مؤدّاهما هو هذا الأمر، وسواء كان في هذا الزمن أو في زمن آخر.

إنّ النبوّات تستهدف فكر الناس وعقولهم وتسعى لأجل ارتقاء هذه العقول، وأيّ شيء يجعل هذه القوى الفكريّة والعقليّة أكثر حدّةً وقوّةً فإنّ النبوّات تقبل به أكثر. فأيّ عامل أو أيّ شخص أو أيّة قدرة أو أيّ توجّه أو دافع، سواء كان في وجود الإنسان نفسه أو من خارج هذا الوجود، يؤدّي إلى تعطيل فكر الناس وعقولهم وحرمانها من إمكانيّة الفعليّة والتشغيل، وعجز الناس عن أن يفهموا الأشياء على ضوء مشعل الفكر والتفكّر واكتشاف السبيل الصحيح وطيّه بحريّة فكلّ ما يؤدّي إلى ذلك، فهو ضدّ الدين ومخالف له. هكذا كان معاوية، فعندما كان الأمر يتعلّق بتنوير أفكار الناس، كان بعيدًا كلّ البعد ولا يفهم من الإسلام شيئًا. وعندما يحكم الإسلام عليه ويلزمه بأن يزيل جوع الناس، ويقضي على الاختلاف الطبقيّ في المجتمع، وأن لا يستخدم سياسة التمييز، ولا يحكّم الظالمين الفاقدين للوجدان على الناس، ولا يختار مستشاريه وأصدقاءه والمقرّبين منهم من بين الظلمة، ولا يجرّ الناس إلى جهنّم، ولا يؤدّي إلى نزول عذاب الله وعذاب الدنيا عليهم، وعندما يُقال له ارفع الضغوط عن الناس ودعهم يفهمون، عندها يصبح معاوية بعيدًا بفراسخ عن الدين.

تراه يقول لابن عبّاس: يا ابن عبّاس لا تقرأ **القرآن**، فيقول له ابن عبّاس: وكيف لا أقرأ **القرآن**؟ فقال له: حسنٌ، اقرأه ولكن لا تفسّره، فقال له ابن عبّاس: وكيف أقرأ **القرآن** ولا أفسّره يا معاوية؟ أيّ كلام تتفوّه به هنا؟ فرأى معاوية كأنّه قد قال شيئًا خطأً ـ وفي تلك الأيّام، كان الأمر يبدو للناس سيّئًا أن يُقال اقرأ **القرآن** ولا تفسّره ـ فقال له: حسنٌ، فسّره لكن لا تفسّره وفق طريق عائلتك ووفق طريقة أمير المؤمنين، فلا تقل

للناس من ذلك التفسير شيئًا. فمعاوية لا يريد للناس أن يفهموا **القرآن**، ولا يريد لهم من الأساس أن يفهموا أيّ شيء. فكلّما قلّ مستوى فهم الناس كان الأمر لمصلحته.

لهذا، عندما نراجع كتاب أعمال معاوية، فإنّنا نجد بالإضافة إلى القتل - دقّقوا جيّدًا - دفن الأحياء، هذا غير رمي الناس في السجون حتّى يتعفّنوا، وغير إعدام حجر بن عُديّ[٥٧] ورشيد الهجري[٥٨] وأمثالهم، وغير تلك الجرائم الفظيعة بحقّ أمثال ميثم التمّار[٥٩]، التي كان الناس يعرفونها جميعًا، ويدركها أيّ إنسانٍ عامّيّ. كان لمعاوية جرائم أخرى لا يدركها إلّا أصحاب البصر الدقيق. ومن تلك الجرائم أنّ معاوية لم يرِد للمجتمع الإسلاميّ، المولود الحديث الذي لم يكن قد طوى العشرين سنة من عمره، هذه الأمانة التي أصبحت بيده، أن يتقدّم؛ بل [أراده] أن يبقى على حاله، وأن يرجع مئتي سنة إلى الوراء. فبأيّ لحاظ كان التراجع، هل قلّت أموالهم؟ كلّا، فيا ليت الأمر كان متعلّقًا بالمال فقط؛ وهل قلّ نفوذهم؟ وهل تفكّكت دولتهم؟ وهل قلّ عددهم؟ فيا ليت الأمر كان منحصرًا بهذه الأمور؛ بل إنّ القضيّة كانت أنّ الناس كانوا يتراجعون بلحاظ الفكر والرؤية والأخلاق، هذه هي الجريمة التي لا يمكن الصفح عنها أبدًا ماضيًا وحاضرًا.

هذه هي المعصية العظمى التي لم يكن بالإمكان معالجتها بعشر سنوات أو عشرين سنة من قِبل حكومةٍ سليمة. فبعد حكم معاوية بعشرين أو

---

(٥٧) وفد حجر في أيّام شبابه مع أبيه هانئ إلى المدينة وأسلم فيها. وبعدها أصبح من أتباع أمير المؤمنين وقادة جيشه. لم يكن مستعدًّا لمبايعة حاكم الكوفة، ولهذا، قُتل مع عددٍ من أتباعه بتهمة الخروج عن بيعة معاوية.

(٥٨) رُشيد من أتباع أمير المؤمنين وأصحاب سرّه، وكذلك الإمام الحسن والإمام الحسين. تعلّم من أمير المؤمنين علم المنايا والبلايا. وقد استشهد كما أخبره أمير المؤمنين بقطع قدمه ورجله ولسانه وصلبه.

(٥٩) ميثم بن يحيى كان غلامًا حرّره أمير المؤمنين وأصبح من أتباعه الخواصّ، ولأنّه كان يبيع التمر عُرف بالتّمّار، وقد تعلّم من أمير المؤمنين تفسير القرآن وعلم المنايا والبلايا، صلبه عُبيد الله بن زياد على تلك النخلة التي أشار إليها أمير المؤمنين.

ثلاثين سنة، جاء عمر بن عبد العزيز[٦٠] الذي يسمّونه عادل بني أميّة ولم يتمكّن أن ينجز شيئًا. ولم يستطع أن يجبر فجائع معاوية أو أن يطمّ مستنقعاته، كما لم يسمحوا له بأن يعيش أكثر من سنتين في الحكم، حيث دسّوا له السمّ وقتلوه. لقد أوجد معاوية حالةً لا يمكن أن تنتج سوى الفساد ولا تقبل إلّا بالفساد. فالجاهلون الفاقدون للبصيرة لا يتأمّلون ولا يدقّقون في القضايا، تراهم ينتظرون أبواق معاوية ماذا تقول وعلى أساس ذلك يصدّقون ويعتقدون!!. وبين يديّ، مجموعة من الوقائع والقصص حول تجهيل أهل الشام في زمن بني أميّة أغلبها قصصٌ طريفةٌ، وقد ذكرت الكثير منها مرارًا في الأبحاث والخطب وفي دروس التفسير. وأذكر بعضها الآن، فلا بأس بذلك، وعلى سبيل الدعابة والنكتة كما يُقال اليوم.

انظروا إلى أين وصل أمر شعبٍ ما. ففي زمن عبد الملك بن مروان[٦١] فُتحت مكّة من قبل الحجّاج بن يوسف. وكان الحجّاج واليًا مقتدرًا ووجيهًا عند بني أميّة وكان يحارب أيّ شخصٍ أو أيّ شيءٍ فيه أدنى ميل إلى التشيّع ويقمعه بشدّة. وبالطبع، إنّ مكّة لم تكن بيد الشيعة بل بيد عبد الله بن الزبير[٦٢]. وكان عبد الله بن الزّبير مثل الحجّاج بن يوسف، غاية الأمر أنّ الله لم يمهله، فهجم الحجّاج على عبد الله بن الزبير وتولّى شأنه وفي النهاية سيطر على مكّة وفتحها؛ ومن جملة ما فعله أنّه سيطر على جبل أبي

---

(٦٠) عمر بن عبد العزيز، كان حاكمًا على المدينة في زمان الإمام السجّاد، وقد وصل عام ٩٩ للهجرة إلى الحكم، ولم يحكم سوى سنتين، وقد خفّف في زمان حكومته من قمع من سبقه، ومن جملة إقداماته منع الخطباء من لعن أمير المؤمنين على المنابر، والذي كان معمولًا به من زمن معاوية، وأرجع فدك إلى أهل البيت، وألغى حكم منع كتابة الحديث، وتساهل مع العلويّين.

(٦١) عبد الملك بن مروان، وصل إلى الحكومة عام ٦٥ للهجرة عندما كانت الحجاز والعراق بيد آل الزبير، هذا وإن كان معروفًا قبل خلافته بالعبادة، ولكنّه بمجرّد أن وصل إلى الحكم، لم يُرَ منه سوى المكر والدهاء وسفك الدماء. وقد تسلّط على كلّ العالم الإسلاميّ بالسيف وبمعونة ولاته الدمويين كالحجّاج بن يوسف الثقفي وبقي في الحكم عشرين سنة.

(٦٢) هو ابن الزبير - صاحب رسول الله – الأكبر. وكان من أكثر الأشخاص تأثيرًا في حوادث زمان الخليفة الثالث، كان له دور كبير وأساسيّ في وقوع حرب الجمل. قال عنه أمير المؤمنين: ما زال الزُّبير منّا أهل البيت حتّى وُلد ولده عبد الله، وقد أعلن عن نفسه خليفةً على منطقة الحجاز بعد شهادة الإمام الحسين وتسلّط على مناطق أخرى من العراق فيما بعد. قُتل سنة ٧٢ للهجرة عند هجوم الحجّاج على مكّة وإحراقه للكعبة.

قبيس، وأنتم تعلمون أنّ هذا الجبل هو من الجبال المحيطة بمكّة، معروف وقريبٌ وملاصقٌ لها؛ فقام بكتابة رسالة أرسلها إلى الشام إلى الخليفة عبد الملك ليقول فيها: الحمد للّه لقد سيطرنا على أبي قبيس، ويقصد هذا الجبل. فأمر الخليفة بأن تُقرأ هذه الرسالة على منابر دمشق، وكان الناس قد اجتمعوا في ذلك الوقت من يوم الجمعة، فقام الخطيب بفتح الرسالة وقال: الحمد للّه إنّ قائد جيش الخليفة الحجّاج قد سيطر على أبي قبيس، فعلا صوت الناس دفعةً واحدة وقالوا: نحن لا نقبل ولا بأيّ شكلٍ، يجب أن تجرّوا أبا قبيس الرافضيّ هذا بالسلاسل وتأتوا به إلى الشام لكي نصدّق؛ فقد تصوّروا أنّ أبا قبيس هو رجلٌ رافضيّ في مكّة. هذا هو مستوى إدراك وفهم الشعب.

ويوجد من قبيل هذه القصص الكثير، فمن الذي أوصل الناس إلى هذا المستوى؟ وعلى مَن يقع إثم عدم فهم هؤلاء؟ من الممكن أن تقولوا إنّه يقع على عاتق شُريح القاضي[٦٣]، أو على عاتق محمّد بن شهاب الزهريّ[٦٤]، أو على عاتق القاضي الفلاني أو فلان المفتي العميل الأجير، فهذا الرجل أو ذاك كان من المفترض أن يرشد النّاس؛ وأنا العبد أقبل بهذا الكلام . فبالطبع، إنّ أبا يوسف القاضي[٦٥]، أو شُريح، أو محمّد بن شهاب الزهريّ، أو غيرهم، قد ارتكبوا أفجع الجرائم مثلما قرأنا في رسالة الإمام السجّاد إلى ابن شهاب ورأينا؛ ولكن مَن هو محمّد بن شهاب وصنيعة مَن؟ فمن هو

(٦٣) شريح بن الحارث، نُصّب في زمان الخليفة الثاني بمنصب قضاء الكوفة، أبقاه أمير المؤمنين في هذا المنصب بشرط أن يشرف عليه في الأحكام وكان شُريح محبًّا للدنيا وقد كتب له أمير المؤمنين كتابًا بسبب بيتٍ اشتراه بثمانين دينارًا يعظه فيه ويوبّخه وذُكرت هذه الرسالة الثالثة في **نهج البلاغة**. انضمّ شُريح بعد مجيء عُبيد الله بن زياد إلى الكوفة إليه، وهو الذي أوصل الخبر الكاذب بسلامة هانئ بن عروة إلى قبيلته حتّى يفرّقهم عن قصر عُبيد الله، واعتبر سفك دماء الإمام الحسين حلالًا. وبعد تسلّط الحجّاج على الكوفة أصبح من الأشخاص المقرّبين إليه.

(٦٤) محمّد بن شهاب من تلامذة الإمام السجّاد الذي انضمّ إلى السلطة وصار خادمًا للسلاطين، وهو أوّل مَن بدأ بجمع الأحاديث بعد قرار عمر بن عبد العزيز بكتابة وتدوين الأحاديث النبوّية.

(٦٥) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، قاضي القضاة في بغداد (١١٣ -١٨٢ ق.) كانت تلميذًا في شبابه عند أبي حنيفة، وقد استلم منصب القضاء لمدّة ١٨ سنة في زمان المهدي وهارون الرشيد والهادي العبّاسي.

ذاك القطب الذي يصنع مثل هذه القوى العلمائيّة التي تقف مقابل الدين والقرآن؟ فهل هو قطبٌ غير معاوية؟! فالمعاصي والآثام إذن تنتهي إلى معاوية وتقع على عاتقه وعلى عاتق عبد الملك بن مروان، وعلى جميع الحكّام والطواغيت من بني أميّة وبني العبّاس وغيرهم. وهؤلاء مع كلّ معاصيهم وجرائمهم كانوا يتبجّحون أحيانًا بادّعاءهم اتّباع **القرآن** والدين. فما هو تكليفنا هنا؟ هل دقّقتم؟ وكيف ينبغي أن نحكم بشأن أشخاص أمثال معاوية أو شُريح أو المغيرة أو زيد بن عمر، في زمان معاوية أو غيره. فلا فرق، في أيّة طبقة وفي أيّ مقام؛ فكيف يكون القضاء بالنسبة لأمثال هؤلاء؟ هؤلاء الذين كانوا في بعض المواقف يتقبّلون الدين والإيمان والمسؤوليّة، وفي بعض المواقف الأخرى لا يوجد أيّ أثر للدين والإيمان في حياتهم. فماذا نقول نحن عن أمثال هؤلاء؟ وهل نعدّهم مؤمنين؟ إنّ **القرآن** يصرّح بأنّ أمثال هؤلاء ليسوا بمؤمنين.

فالإيمان المُعتبر في الفكر الإسلاميّ ليس الإيمان الذي ظهر على أمثال هؤلاء، والذين نجد لهم نظراء في زماننا إلى ما شاء الله، بل ذلك الإيمان الثابت لأولئك الذين كانوا يلتزمون بما يُلزمهم، في كلّ مكان ومع كلّ شخص وفي كلّ حالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٦]. إنّ المواعيد التي أعطيت للإيمان والمؤمنين هي على الإيمان الواعي لا على ذاك الإيمان. فلو قيل إنّ المؤمنين منتصرون، فإنّ النصر يكون لأمثال هؤلاء المؤمنين، وهو قطعًا كذلك؛ وإذا قيل إنّ يد الله مع المؤمنين فيكون ذلك كما النصر؛ ولو قيل إنّ الطبيعة تنصر المؤمن وتؤيّده فهذا يكون بالنسبة لهذا النوع من المؤمنين، لا لأمثالنا أنا وأنتم. فنحن الذين ننال أقلّ استفادة من هذا البحث، علينا إذا رأينا أنّ إيماننا لا يتمتّع بتلك الآثار والخصائص والبشارات الإيمانيّة

(٦٦) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٧.

والبشارات التي جعلها **القرآن** والله للمؤمنين، علينا أن لا نتعجّب، لأنّنا نفهم إنّ ذاك الإيمان هو الذي يتصاحب مع كلّ تلك البشارات وهو ليس موجودًا هنا.

والآن، استمعوا إلى هذه الآيات وأنصتوا لها، ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ﴾[٦٧]، فهذه الآيات القرآنيّة في مجال البيان والتوضيح، وأولئك الذين لا يسمحون لأنفسهم بفهم **القرآن**، هؤلاء المساكين الذين حُرموا من هذا البيان، ﴿وَاللَّهُ يَهْدي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾[٦٨].

فماذا تعني مشيئة الله؟ هل هي بمعنى أنّ الله يختار بشكلٍ عشوائيّ هذا الشخص ويترك ذاك؟ وهل أنّ له نظرةً خاصّة إلى البعض فيجذبهم ويدع البعض الآخر؟ لا، الأمر ليس كذلك، إنّ إرادة الله ومشيئته - في الموارد العاديّة بالطبع - لا تكون إلّا في قالب العلل الطبيعيّة والعاديّة من حيث الظهور. فأنتم إذا أردتم وشئتم وجلستم في مجلس الهداية والبيان وهُديتم، فإنّ الله يكون قد شاء هدايتكم. أمّا إذا تكاسلتم ووهنتم وأغلقتم طريق الفهم على أنفسكم، فإنّ الله يكون قد أراد لكم أن لا تفهموا، إنّ إرادة الله هي بمعنى أن تتحقّق بالوسائل والأسباب العاديّة أو لا تحدث. فلو حدثت هذه العلل العاديّة والوسائل من أجل إنجاز هذا المعلول بإرادتكم ومشيئتكم، هنا يكون الله قد أراد؛ وإذا لم تشاؤوا فمن الواضح أنّ الله لا يكون قد شاء، لا بمعنى أنّ عدم مشيئة الله توجب أن لا تريدوا، كلّا. فأنتم في الإرادة أحرار. عندما نقول إنّ الله لم يشأ فيعني ذلك أنّ العلّة المطلوبة لم تترتّب.

حسنٌ، لماذا لا نقول إنّ العلّة المطلوبة اللازمة لم تترتّب ونقول إنّ الله لم يشأ؟ من أجل أنّ موجد العلل والذي يمنح خاصيّة العلّة للعلل هو الله. فلو أنّ نارًا أضرمت هنا، وقمتُ أنا بوضع يدي في النار، يكون الله قد أراد

(٦٧) سورة **النور**، الآية ٤٦.

(٦٨) سورة **النور**، الآية ٤٦.

لها أن تحترق؛ ولو أنّني لم أضع يدي في النار ولم تحترق، يكون اللّه قد أراد لها أن لا تحترق، فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّ اللّه أرادها أن تحترق بمعنى أنّه قد أمّن العلّة الطبيعيّة للإحراق، فما هي هذه العلّة الطبيعيّة؟ إنّها عبارة عن وجود النار وعدم وجود المانع وإرادتي بمدّ يدي. ما نودّ أنّ نقوله من أنّ اللّه لم يشأ [ليدي] أن تحترق في الصورة الثانية في حال أنّ العلّة الطبيعيّة للإحراق لم تتوفّر، أو أنّ [يدي] لم تقترب من النار، أو أنّ اليد كانت رطبة، أو أنّ النار كانت قليلة، وأمثال ذلك. حسنٌ، فلماذا ننسب ذلك الشيء المرتبط بالعلل إلى اللّه؟ ذلك لأنّ اللّه هو خالق العلل، فلهذا السبب إنّ قوله ﴿ما يشاء﴾ في كلّ موارد **القرآن** هو من هذا القبيل. وقد أوضحت ذلك مفصّلًا في موارد عديدة وفي مناسباتٍ مختلفة، وها هنا أشرت إلى الأمر أيضًا.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾[٦٩]، إنّهم يدّعون مثل هذه الأمور، وادّعاء ذلك سَهلٌ، ولكن ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾[٧٠]. فبعد هذا الادّعاء، نجد أنّ جماعةً منهم تتراجع، وبعد أن تراجعوا ـ إنّ الحديث هنا ليس عن الكفّار ولا عن المرتدّين الذين إذا سخطوا، فإنّهم يخرجون من عالم الإسلام دفعةً واحدة ويذهبون، كلّا، إنّ الحديث هو عن المؤمنين العاديّين داخل المجتمعات، أي المجتمعات الإسلاميّة ـ يقول اللّه عنهم ﴿وما أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٧١].

يوجد ها هنا ما هو أوضح من ذلك: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٧٢]، فنشاهد أنّهم فجأةً يتراجعون وهم غير مستعدّين ليذهبوا إلى الرسول ويستمعوا إلى حكمه. إنّ الآية بحسب الظاهر ترتبط بالقضاء، ولفظ الحكومة في **القرآن** يأتي غالبًا، ولا أقول

(٦٩) سورة **النور**، الآية ٤٧.

(٧٠) سورة **النور**، الآية ٤٧.

(٧١) سورة **النور**، الآية ٤٧.

(٧٢) سورة **النور**، الآية ٤٨.

دائمًا، بمعنى القضاء، وهو المعنى الذي نستعمله نحن في المحاكم. ولكنّ مضمون ومفاد الآية عامّ وليس منحصرًا بشأن أولئك الذين لا يخضعون لقضاء النبيّ، بل إنّ الآية تشمل الذين لا يطيعون أوامر النبيّ في غيرِ موارد القضاء أيضًا، وهو أمرٌ واضح ﴿وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّه وَرَسُوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ منْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهذا هو الإعراض. ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْه مُذْعنينَ﴾. أمّا إذا كان الأمر لمصلحتهم، فيأتون إلى النبيّ بكامل الطاعة والإذعان، أمّا إذا كان الاحتمال بأن يكون الحكم ضدّهم فإنّهم لا يقبلون الدين، هنا نجد **القرآن** يجرّهم إلى استيضاح الحقيقة.

فلماذا لا تقبلون بالدين عندما لا يكون لنفعكم الشخصيّ؟ يوجد أحد أمور ثلاثة:

﴿أَفي قُلُوبهمْ مَرَضٌ﴾[٧٣] هل هو مرض النفاق أم هو مرض الأهواء والهوس؟ هل هو مرض الجهل والغرور؟ هل هذه هي الأمراض التي وُجدت في قلوبهم فمنعتهم من تقبّل الحكم؟ أم ما هو غير ذلك؟

﴿أَم ارْتابُوا﴾ هل هذا الأمر هو نوع من الشكّ في الدين؟ فلو لم يكن في قلبك شكٌّ ولم تكن متردّدًا ولا مرتابًا بشأن الدين فلماذا عندما لا يكون في مصلحتك، بل يزاحمك، تكون غير مستعدٍّ للخضوع، بل تنكره من الأساس، أي أنّك تنكر ذلك الحكم.

أم هو أكثر من ذلك، ﴿أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ فلعلّهم يخافون أن يظلمهم الله ويظلمهم الرسول، وهذا أكبر من ذلك الشكّ لأنّه عين الكفر.

فهل يمكن للإنسان أن لا يعلم ولا يعتقد بأنّ الله والرسول لا يمكن أن يظلما في أحكامهما. فالذي في قلبه مثل هذا الخوف من ظلم الله أو ظلم الرسول، من الواضح أنّ مثله لا يعرف الله ولا يعرف الرسول من الأساس، ولا يقبل بهما ﴿بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فإنّ الله لا يظلم أحدًا، هؤلاء هم

(٧٣) سورة **النور**، الآية ٥٠.

الذين يظلمون، ويظلمون أنفسهم في الحقيقة، فلو كان لهم منصبٌ أعلى لظلموا أنفسهم وظلموا الناس واعتدوا على الحقيقة وعلى البشريّة بصورةٍ مطلقة وظلموها.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٤) إنّ المؤمنين ليسوا كذلك، والقرآن يعطي الألفاظَ معنًى وله ثقافةٌ خاصّة بالمصطلحات. والمؤمن بالاصطلاح القرآنيّ له معنًى يوضّحه القرآن في هذا المورد ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فهؤلاء يَقولون إنّنا فهمنا وأدركنا لا مجرّد أنّنا سمعنا. فمصطلح السمع كما في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ - الذي جاء في **القرآن** في العديد من الموارد - وقد صادف أمس أنّني أثناء مطالعة **القرآن** التفتّ إلى مورد آخر، هو بمعنى الفهم لا بمعنى مجرّد الاستماع بالأذن، أي هذه الجارحة وهذا العضو الخاصّ. يقولون لقد فهمنا وأصبحنا مؤمنين عن وعي، هذا ما كنّا قد تحدّثنا عنه سابقًا وذكرنا أنّ الإيمان ينبغي أن يكون عن وعي.

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فبعد أن آمنّا عن وعي، بدأنا بالطاعة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي إنّهم يصلون إلى المطلوب والفلاح وهو التوفيق والنصر والوصول إلى الهدف والمقصد. وفي أغلب الأحيان، عندما يُستخدم الفلاح بالنسبة للمؤمنين، فإنّه يكون أنسب مع ذاك المعنى الذي ذكرناه وهو المعنى المتعارف في اللغة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، فالفوز يحمل معه هذا المعنى وهو الوصول إلى الهدف والمقصد.

والآيتان اللاحقتان لا ترتبطان كثيرًا ببحثنا، لذلك أريد أن أقفز إلى الآية اللاحقة. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ (٧٥) إنّ هذا وعد الله أيضًا للمؤمن الملتزم، فدقّقوا. إنّ الوعد الإلهيّ في هذه الآية يقول بصراحة:

---

(٧٤) سورة **النور**، الآية ٥١.

(٧٥) سورة **النور**، الآية ٥٥.

لقد وعدنا المؤمنين أن تكون الحكومة لهم على الأرض، وأن يكون فكرهم ونهجهم ودينهم حاكمًا على العالم، وأنّ خوفهم واضطرابهم سيتبدّل إلى الأمن والأمان، وإن كانوا يعانون طيلة التاريخ من التعذيب والأذى والظلم، فإنّهم بعد ذلك سوف يعيشون بكلّ راحة، وبعيدًا عن الغموم والاضطراب، ويعبدون الله، ويزيلون أنداد الله من الأرض؛ هذا هو الوعد الإلهيّ الموجود في هذه الآية، وإن منح الله هذا الوعد للمسلمين فهذا الوعد مرتبطٌ بالمؤمنين، أي بالمؤمنين الملتزمين.

إنّ بعض الأشخاص تسيطر عليهم الوساوس الكثيرة، ويجمدون عند رأي واحد ويقولون هذا الأمر مخصوصٌ بزمان وليّ العصر صلوات الله وسلامه عليه. نحن لا نشكّ بأنّ زمان ظهور إمام الزمان، صلوات الله وسلامه عليه، هو المصداق الكامل لهذه الآية، ولكن أين ذُكر في هذه الآية أنّ الأمر مختصٌّ بذلك الزمان؟ أخبرونا لنرى. أين توجد هذه الرواية التي تخصّص تلك الآية لذاك الزمان؟! فلماذا تحدّون الآية وتخصّصونها؟! ألم ينفّذ الله وعده للمؤمنين الذين كانوا في صدر الإسلام؟ إنّ هذه الآية تحقّقت في ذلك الوقت، لقد جاؤوا إلى المدينة وأقاموا تلك الحكومة، فأمثال بلال، الذين كانوا يخافون من كفّار قريش ويخشون أن يقولوا "لا إله إلّا الله" على لسانهم، قد صدحوا بهذه الجملة على المآذن وكبّروا بصوت عالٍ. أولئك الذين كانوا مجبرين على السجود لثلاثمئة صنم غير بشريّ، وللعديد من الأصنام البشريّة، وصنم أنفسهم وشهواتهم وميولهم النفسانيّة وعبادتها والتوجّه إليها كلّ يوم وكلّ ليلة وتقديم الطاعة المطلقة لها، وقد جعلوا كلّ هؤلاء الشركاء لله؛ جاؤوا في النهاية وبدأوا حياةً جديدة في تلك الأرض الآمنة والمجتمع الإسلاميّ المترقّي دون أن يعيشوا أيّ نوع من الهواجس والقلق، ولم يجعلوا لله أندادًا صغيرةً أو كبيرة، عاقلةً أو غيرَ عاقلة، من أنفسهم أو من غيرهم. وهذه الآية قد تحقّقت هناك مرّةً، ويمكن أن تتحقّق آلاف المرّات، ولكن ما هو شرطها الأساسيّ؟ يقول تعالى ﴿وَعَدَ

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هؤلاء الذين يعملون وفق المسؤوليّات الإيمانيّة قد وُعدوا بأن يصبحوا خلفاء في الأرض؛ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. والمقصود من عبارة «في الأرضى» ليس جزيرة العرب وقد وقع مَن ترجم العبارة في الخطأ بهذا الاعتبار، فهل إنّ سيطرتهم على الجزيرة العربيّة فيه الكثير من العظمة؟ بل حتّى لو سيطروا على ٤٠ أو ٥٠ أرض مثل الجزيرة العربيّة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني على الأرض. وقد ذكّرت بأنّه قد تقع بعض الأخطاء في الترجمات، وبالتأكيد نحن لا نسيء الظنّ بأحد ولا نقول إنّ قولكم «في هذه الأرض» هو من أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أراضٍ أخرى، أو أن تقصدوا أنّ المؤمنين والعاملين بالعمل الصالح يمكنهم أن يتسلّطوا على أرض الحجاز ولكن لا يمكنهم أن يسيطروا على أراضٍ أخرى، كأرض الريّ والروم وبغداد والأندلس وغيرها؛ كلّا، نقول إنّ مقصودهم إن شاء الله لم يكن مثل هذه الأمور.

على كلّ حال، إنّ قوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يَتَصَوَّر منه أنّ المؤمنين أينما كانوا منذ بداية العالم يعيشون في المذلّة. وفي الأساس، أرى أنّ عامّة المسلمين في قراءتهم للتاريخ ومعرفتهم للعالم يرون الإيمان متلازمًا دومًا مع التعرّض للقهر، وأن يكون الإنسان مسلمًا أو مؤمنًا بطريق الله يعني ضرورة تلازم ذلك مع المعاناة والعذاب والهزيمة. وهذا تمامًا معاكسٌ لما يريد **القرآن الكريم** لنا أن نفهمه. لقد شرحت قبل مدّة هذا الأمر[٧٦]، كيف أنّ الدين منذ أن وُجد وإلى اليوم كان في حالة تقدّمٍ مستمرّ ولم يتراجع خطوةً واحدة. وهذا ما نعتقده.

وبالتالي، إنّ ما على الأرض هو لكم، فالحكومة في أيديكم مثلما حصل للسابقين، أي لمؤمني العصور السابقة. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾، فهذا يعني

(٧٦) في مدرسة الميرزا جعفر قبل سنتين أو ثلاث، وهناك في إحدى المناسبات تحدّثت ليومٍ أو عدّة أيّام عن ذلك الموضوع.

أن يستقرّ دينهم ومسلكهم ومنهجهم ومرامهم، ذاك ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، أي ما يليق بهم، أي هو دين الإسلام، الذي يشمل حال الدنيا والآخرة والحاضر والمستقبل والجسم والروح وباختصار جميع الأبعاد، فهو كافٍ لجميع الاحتياجات. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، فلأجل أيّ شيءٍ؟ وهل لأجل أن يجلسوا في أمنٍ وأمانٍ ويشربوا الشاي وقت العصر في حدائقهم بإبريقٍ صينيٍّ وسماوار بولنديّ(٧٧)؟ هل إنّ قضيّة الأمن بالنسبة لهم هي هذه؟؛ من أجل أن يتمكّنوا من الاستقرار والاستلقاء والاستجمام؟ كلّا. إنّما كان ذلك الأمن من أجل أن يتمكّنوا من السير خطوةً، وعشر خطوات، في ظلّه نحو مقصد الإنسانيّة النهائيّ أي التكامل، وليتمكّنوا من أن يصبحوا عبادًا لله، وليقتلعوا من أنفسهم العبوديّة للأنداد، وليطيعوا الله ويخضعوا له، وليتمكّنوا من التعالي والتكامل على هذا الطريق. فكلّ كلمةٍ من هذه الكلمات يمكن أن يكون لها بحثٌ مستقلٌّ؛ ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. بالطبع تذكر هذه الآية في آخرها، أنّ من يشرك بعد إيمانه فهو من الفاسقين، والفسق هنا يعني الخروج عن الدين.

اللهمّ! اخلص قلوبنا في كلّ ما نقول وما نفعل، واجعل كلّ ذلك لك.

اللهم! بمحمّد وآل محمّد أذقنا طعم الحياة التوحيديّة.

اللهمّ! بمحمّد وآل محمّد نقِّ قلوبنا من الشرك.

اللهمّ ! بمحمّد وآل محمّد لا تمنعنا خيرك، وأزلْ كلّ غرورٍ وآفة وشرخ بين المسلمين.

اللهمّ! أشغل أعداء المسلمين ببعضهم البعض.

---

(٧٧) يُصنع هذا السماور من النحاس والنيكل ويظهر كأنّه ذهبيّ وهو مقاومٌ للصدأ، ولأنّه استُورد إلى إيران أوّل مرّة من بولندا عُرف باسم عاصمة بولندا وارسو.

الجلسة السادسة: البشائر

الثلثاء، ٧ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٧٨].

(٧٨) سورة **النساء**، الآيتان ١٧٤ و١٧٥.

إنّ البحث حول الإيمان هو في الحقيقة بحثٌ مقدّماتيّ. فنحن، ولأجل فهم الدين ومعرفة الأصول الأساسيّة في العقائد الدينيّة، ينبعث في أنفسنا شوقٌ يحملنا على السعي والتحرّك الجادّ من أجل فهم الدين ومعرفته. ولأجل القيام بهذا الأمر المهمّ، نحتاج إلى أن نعرف قيمة الإيمان وكيفيّته. فلهذا، كان بحثنا حول الإيمان.

وما ذُكر من قضايا حتّى الآن حول الإيمان كان عبارة عن مسألتين أو ثلاث مسائل أساسيّة ومهمّة. من جملتها أنّ الإيمان ينبغي أن يكون واعيًا لا إيمانًا أعمًى. والمسألة الأخرى هي أنّ الإيمان ينبغي أن يكون متلازمًا مع تحمّل المسؤوليّة والعمل، بل إنّ الإيمان بحدّ ذاته ينشئ المسؤوليّة ويولّد العمل، لا أنّه مجرّد اعتقاد جافّ وفارغ ينحصر في نطاق القلب والذهن. والمسألة الثالثة كانت أنّ المؤمن الملتزم إنّما يكون مؤمنًا إذا لم يكن إيمانه متقلّبًا، ولم يكن انتهازيًّا وتابعًا للمصلحة الشخصيّة، بل يكون إيمانًا عندما يكون دائمًا وشاملًا وعامًّا ومستمرًّا. هذه مسائل تمّت الإشارة إليها في مجال الإيمان وكان من اللازم أن نتعرّف عليها.

وقبل أن ندخل في أصل الموضوعات التي نتطلّع إليها، وهي عبارة عن المعارف الاعتقاديّة للإسلام، يوجد أيضًا بحثٌ مختصرٌ آخر من الضروريّ أن نبدأ به. ففي البداية، كنت أتصوّر أنّ هذا البحث يمكن أن ينتهي في يوم واحد، ولكن بمجرّد أن تعمّقت وبدأ الغور في القضيّة، وجدت أنّه يحتاج إلىً أربعة أو خمسة أيّام كي ينتهي لا محالة.

والبحث هنا هو أنّنا إذا أردنا أن نعرف قيمة الإيمان ونتيجته، فينبغي أن نطّلع على البشائر والأمور التي أعدّها الله للمؤمنين لنرى كيف أنّ الله تعالى قد تعهّد بأشياء في مقابل ما يقدّمه المؤمن بإيمانه وعمله الصالح والتزامه ووفائه. ولأنّ الإنسان تعرّف على أحكام المعاملات وعمل بها في حياته بصورة دائمة، فهو يحبّ أن يرى كيف تكون معاملته مع الله وبأيّة صورة. فهو يؤمن ويلتزم بأمور على أثر ذلك الإيمان، ويحبّ في المقابل أن

يعلم ما هو العهد الإلهيّ الذي يكون مقابل تعهّده والتزامه وما هي البشائر والوعود التي تُقدّم له. فهذه قضيّةٌ تمثّل بنظر المؤمن، وبنظر أيّ إنسان يرد ساحة الإيمان ويكون ثابت القدم وراسخًا مستقيمًا، قضيّةً جذّابة ومستطابة ومطلوبة ومحبوبة وتبعث الأمل في نفس المؤمن.

لقد جمعنا كلّ الآيات الواردة في مجال الإيمان والمؤمن في **القرآن الكريم**، وقد حصلنا على حوالي ٧٠٠ آية بهذا الشأن وبعض الخصائص الأخرى المتعلّقة به. وكان المبنى أن ننظر في هذه الآيات لنرى ما هي الأمور التي تترتّب على الإيمان. لقد بحثنا في هذه الآيات حول ما أعدّه الله تعالى للمؤمنين من بشائر وثواب وعاقبة حسنة ومطلوبة. وجدنا أنّها كثيرةٌ جدًّا. وبرأيي يمكن أن تبلغ حوالي ثلاثين أو أربعين مطلبًا ترتبط بما يترتّب على الإيمان من جانب الله تعالى في **القرآن الكريم**. يتمتّع المؤمن بهذه الامتيازات الكبرى التي تبلغ حوالي ٤٠ ميزةً وكلّها على مستوى عالٍ، وتقع جميعًا في نطاق الأهميّة التي ترتبط بسعادة الإنسان وتكون ضروريّةً ولازمةً في هذا المجال.

وأحد هذه الموضوعات هي الجنّة الأخرويّة. فمنها ما قاله الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، وقد تكرّر هذا الوعد في حوالي الثلاثين أو الأربعين آية. وإذا أردنا أن ندرسها جميعًا كما ذكرتُ فإنّنا سوف نحتاج إلى وقت طويل حتّى نستوفي البحث بشأن هذه البشائر والوعود التي أُعطيت للمؤمنين، لذا سوف نكتفي بذكر بعضها على أن نترك الباقي بعهدة الحضور الكريم لبحثه ومناقشته.

إنّ الإنسان ولأجل الوصول إلى السعادة الشاملة والكاملة يحتاج إلى أمور، ما هي؟ ماذا يحتاج الإنسان ليكون سعيدًا؟ إنّ الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان ليكون سعيدًا بصورة كاملة وشاملة قد أُعطيت للمؤمن وتترتّب على الإيمان. وهذه الأمور هي عبارة عن ١٠ أو ١١ موضوعًا ـ هل سيشعر الإنسان بالسعادة والرضا فيما لو حُذف أحدها؟ سترون أنّ الأمر

لن يكون كذلك. بالتأكيد هناك موضوعاتٌ أخرى أيضًا ترتبط بشعور الإنسان بالسعادة، وكلّ هذه الموضوعات هي بصورة البشارة والوعد الذي يترتّب على الإيمان والمؤمن في **القرآن**، فما هي النتيجة التي نخرج بها؟ نستنتج أنّ الإيمان، الذي هو الاعتقاد المتلازم مع العمل كما حدّدت ثقافة **القرآن**، يتلازم مع جميع الظروف التي ترتبط بالسعادة، أي مع تلك الاحتياجات التي يتصوّرها الإنسان لنفسه.

إنّ القضيّة ليست قضيّة التعصّب للمذهب والدين والتديّن. وما ذُكر تحت عنوان شروط السعادة هو في الواقع ما يبغيه الإنسان المادّيّ أيضًا. وعندما نرجع إلى **القرآن** ونستمع إلى حديثه المؤنس، فسوف نرى أنّها جميعًا قد قُدّمت كوعدٍ للمؤمن وبشارة له، وهي في الواقع نوع من العطاء والهديّة المعدّة لغيره، وصدق الله، فإنَّ الله لا يمكن أن يقدّم وعدًا كذبًا. وبالطبع، إنّ هذا الجانب يرتبط بنوع التفكّر الدينيّ الخاصّ الموجود عندنا لأنّنا نعتقد بالله.

فما هي الأشياء التي يحتاجها الإنسان؟ أوّلًا، يحتاج إلى معرفة الهدف ومقام السعادة؛ أن يعلم إلى أين سوف يصل وما هو الهدف الذي ينبغي أن يسعى نحوه، وأن يعلم منذ البداية ويرى ما هي نقطة النهاية وما هو طريق الوصول إليها. بالإضافة إلى معرفة الهدف، وفهمه وإدراكه ينبغي أن يعرف ما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه للوصول إلى الهدف بصورةٍ أسرع ومؤكّدة. أليست معرفة الهدف ونقطة الهداية والمقصد ومعرفة الطريق الذي ينتهي إلى هذا المقصد من العناصر الأوّليّة والأساسيّة لسعادة الإنسان؟! ففي هذا المجال، لا يوجد فرقٌ بين الإلهيّ والمادّيّ؛ فالمادّيّ أيضًا يقبل بذلك ويذعن له ويشعر بأهميّته. وقد ذكرنا بين القوسين أنّ الهداية هي أوّل شرط. على كلّ حال، إنّنا سنأتي على ذكرها تباعًا ومن الممكن أن يبرز من بين ثناياها بعض الأمور الأخرى أيضًا.

ثانيًا، إزالة جميع حجب الجهل والغرور والظنون وكلّ ما يجعل جوهر

فكر الإنسان وعقله في الحجب الظلمانيّة ويسلبه قدرة البصيرة والفهم. فهناك الكثير من الأشياء التي تمنع الإنسان من أن يفهم، كغرور الإنسان، وكذلك جهالاته وظنونه والخرافات، فإنّ هذه جميعًا تمنع أيّ إنسان وأيّ شعب من إدراك الحقائق وفهمها؛ وكذلك الأنظمة الجائرة الظالمة فإنّها تحول دون تفتّح أذهان الناس ومعارفهم. إنّ الحجب والموانع المختلفة سواءٌ من الداخل أو من الخارج تصبح مانعًا من أن يستعمل الإنسان جوهر عقله وفكره لكي يصل إلى المعرفة والفهم، فتجعله في عتمة الظلام وتحبسه في سجن الظلمات وتبعده عن النور وعن ضياء الإدراك والفهم الصحيح. فمن أركان سعادة الإنسان وعناصرها أن ينجو الإنسان من هذه الظلمات، ومن كلّ ما يؤدّي إلى حصولها، لكي يصل إلى نور الحقيقة وطريق ضيائها ولكي تشعّ على قلبه أنوارها. في البداية، يحتاج الإنسان إلى الهداية بذلك المعنى الذي تمّ توضيحه. ومن جهة أخرى، يحتاج إلى النور بالمعنى الذي أوضحناه أيضًا، فهذان شيئان.

ثالثًا، أن يكون بعيدًا ومصونًا في طريقه الطويل نحو السعادة - هذا الطريق الذي يقطعه باتّجاه ذلك المقصد والمنتهى - من الهواجس والوساوس الداخليّة، (دقّقوا هنا) والتي هي أشدّ وطأةً من العوامل الخارجيّة المانعة. فأحيانًا، هناك شيءٌ ما يقف أمام طريقكم ليُقال أيّها السيّد، يا فلان نحن لن نسمح لك بالعبور؛ وقد أثبتت التجارب، وعلّمنا التاريخ، بصراحة أنّه عندما يُحال بين الإنسان وبين ما يريد، ويُسدّ الطريق عليه، فإنّه يصبح أكثر حرصًا على سلوكه ويزداد شوقه ويشتدّ ميله اشتعالًا. فلو قيل له إنّنا لن ندعك تمرّ، فإنّه سوف يضغط أكثر لكي يعبر؛ هذا هو العامل الخارجيّ المانع. وفي بعض الأحيان، هناك ما ينبع من داخل الإنسان ويخمد فيه هذه الشعلة ويوجد فيه الشكّ والتردّد؛ وهذا الأمر لا يقف أمام السالك بل يُبقي له الطريق مفتوحًا، لكنّه يسلبه القدرة على السير، وإرادة التحرّك، والعزم على المضيّ، وإمكانيّة السعي؛ وهذا

أسوأ. فيُقال له لماذا تسير؟ وما هي الفائدة؟ لعلّك لن تصل، لعلّك ستواجه قاطع طريق أثناء مسيرك وقد تهجم عليك الذئاب، فعلى أيّ أساس أنت تخاطر؟ فهذا المانع لا يريدك أن تتحرّك، وكلّ ذلك يحدث ببرودة أعصاب وتحرّق واهتمام ورعاية، رغم أنّ الطريق مفتوح. إنّ هذا المانع والوساوس وهذه الهواجس هي أشدّ وطأةً بدرجات من تلك الأشواك أو العصيّ التي تقف على قارعة الطريق.

لقد كانت مثل هذه الهواجس على مرّ التاريخ أمام أغلب السالكين الذين أرادوا طيّ طرق السعادة. فكم قد ترجّوا موسى وخافوا من أن يتمّ إخلاف الوعد الذي قُطع له. ويذكر **القرآن الكريم** أنّ الضغط والفقر كان شديدًا إلى درجة أنّ الخواص أنفسهم تزلزلوا وقالوا: متى نصر الله؟ وتساءلوا متى، وأين، وماذا حدث؟ انظروا حتّى الخواص يتزلزلون ويعيشون مثل هذا التردّد والتزلزل والهواجس الداخليّة والباطنيّة. لو أراد الإنسان أن يكون سعيدًا ويصل إلى مقصد السعادة ومنتهاها فشرطه أن ينجو من هذه العوائق الداخليّة وكلّ هذا الاضطراب والتزلزل الروحيّ وعدم الشعور بالأمن وفقدان الاطمئنان الداخليّ. وهذا أيضًا يُعدّ من الأمور التي توصل الإنسان إلى السعادة فيطوي ذلك الطريق الطويل الشاقّ المليء بالهواجس والوساوس الداخليّة. وقد ذكرنا بين القوسين لفظتي «الاطمئنان» و«الأمن». ويمكنكم أن تضعوا مكان لفظ «الأمن» كلمة «الأمان» فلا فرق. إنّما اخترنا كلمة «الأمن» لأنّها عين التعبير القرآنيّ. ولا بأس بأن نذكّر بهذه الجملة هنا، ولعلّنا ذكرناها عدّة مرّات، حيث نقول في دعاء كميل «يا ربّ يا ربّ يا ربّ قوِّ على خدمتك جوارحي واشدد على العزيمة جوانحي»، كلّ ذلك من أجل أن أتمكّن من اتّخاذ القرار والتغلّب على كلّ أشكال الضعف والتردّد والشكّ والوساوس والهواجس؛ فهذه الأشياء هي التي تُقعد الإنسان على الطريق وتمنعه من طيّها وعبورها.

رابعًا، أن يرى سعيه مثمرًا في النهاية فيكون مؤمّلًا بأنّ هذا السعي

سينتهي إلى مكانٍ ما. فالذين يفقدون الأمل من أنّ سعيهم وحركتهم سينتهيان إلى نتيجةٍ ما، من المسلّم أنّهم لن يصلوا إلى مقصد السعادة والفلاح. يحتاج الإنسان إلى أن يكون مطمئنًّا بأنّ سعيه سيكون مثمرًا، وأن يعلم بأنّ كلّ ما يقوم به سيكون له أثرٌ إيجابيٌّ في مكانه، وأن يدرك أنّ كلّ خطوةٍ يخطوها تقرّبه نحو المقصد النهائيّ. فلو كان الإنسان في بيداء، وكان يعلم أنّ المنزل المقصود هو من هذه الجهة، فإنّه يدرك كيف يجب عليه أن يسير، وإن تأخّر أو بقي وحيدًا أو سبقته القافلة، فإنّه سيتحرّك بثبات وإحكام وسعي وشوق ويخطو نحو الأمام. أمّا إذا أضعتم الطريق، ولم تعلموا من أيّةً جهة ينبغي أن تتحرّكوا وضاعت الجهات الصحيحة عندكم، فإنّكم مع كلّ خطوةٍ تخطونها ستلاحظون أنّ الوهن سيتسلّل إلى نفوسكم، لماذا؟ لأنّكم لا تعلمون أنّ هذا السعي سيكون مثمرًا، فتحتملون أنّ هذه الخطوة التي تقدّمتم بها قد أبعدتكم بنفس المقدار عن المنزل المقصود؛ لهذا، فإنّكم ترجعون إلى الجهة الأخرى ثمّ تتحرّكون، وهكذا يتكرّر الأمر عدّة مرّات. إنّ من الشروط التي يمكن أن توصل الإنسان إلى السعادة إذن هو أن يكون لسعي هذا الإنسان الذي يسير ويسعى ويجاهد، أن يكون لسعيه وجهاده ثمرةً واضحةً.

خامسًا، أن تكون أخطاؤه وزلّاته قابلةً للجبران والعفو. وهذا الشرط مهمٌّ جدًّا. فكلّ إنسانٍ يرتكب الأخطاء على مرّ حياته ويقع في الزلّات أثناء تحرّكه؛ فلو كان كلّ خطإٍ يرتكبه عبارة عن جرح لا يمكن أن يلتئم ويصبح أمرًا غير قابل للجبران، فإنّ الإنسان سيبقى في قلقٍ دائم من أن يرتكب الخطأ الآخر، ومن أن يبتعد عن الهدف ويتنكّب عن الطّريق الصحيح، فيقع في حالة من اليأس الدائم، ويعيش الظنون السيّئة من الماضي ومن كلّ شيءٍ يأتي في المستقبل. أمّا إذا علم أنّ أخطاءه تقبل الجبران، بشرط أن يسعى لذلك بنفسه، وأدرك أنّ كلّ خطإٍ يرتكبه يمكن أن يُحَلّ إذا ندم عليه، فلو علم كلّ ذلك، فإنّ شوقه وأمله وحماسه سيتضاعف. وقد كتبنا داخل

القوسين كلمتي «المغفرة» و«الرحمة».

سادسًا، أن يتمتّع في جميع أحواله بالإمكانات التي تساعده وتبثّ في نفسه الطمأنينة. أن يعلم أنّ في كلّ مكان، وفي جميع الظروف، عاملًا مساعدًا يمكن أن يستفيد منه. وهذا يشبه تمامًا ذلك الذي يضع الخريطة، التي تبيّن كلّ طريق، في جيبه ثمّ يبدأ بالمسير، فهو مطمئنٌّ بكلّ خطوةٍ يخطوها. يمكن أن يقع في الأخطاء، لكنّه غير قلق. فهو يعلم أنّه لو ضلّ الطريق اشتباهًا في بعض الأوقات والأماكن وسلكَ طريقًا آخر، فإنّ هذه الخارطة في جيبه، يمكنه أن يفتحها وينظر فيها ويتعرّف على الطريق الصحيح ويدرك خطأه، فيوجد هنا وفي كلّ الأماكن مستمسَكٌ ومستعصَم يمكن أن يتمسّك به ويعتصم ويستفيد منه.

سابعًا، أن ينال النصر والمدد الإلهيّ في مواجهة الأعداء والعداوات، وهذا الأمر يُعدّ من الشروط الأساسيّة للسعادة والفلاح. بالتأكيد إنّ الإنسان المادّيّ الذي لا يعتقد بالله، ونحن في هذا المجال لا نذكر للإنسان المادّيّ اسم الله، بل نقول يا فلان إنّ في سعيك المادّيّ هذا، وفي هذا التحرّك الاجتماعيّ أو الجهاد الذي تقوم به، لو أنّك علمت أنّ هناك قوّةً ما وراء المادّة والطبيعة وأنّ هذه القوّة تلازمك، فكيف سيكون الأمر بالنسبة لك؟! لو أنّ هذا الشيء كنت تملكه، وكان لديك مثل هذا العون والمدد، فكيف سيكون الأمر بالنسبة لك؟ سترون مباشرةً أنّ عينيه ستلمعان ويقول جيّدٌ جدًّا. فما أجمل أن يكون للإنسان قوّةٌ ما وراء القوّة المادّيّة والمادّيّات تدعمه وتمدّه عندما يواجه الأعداء وعداواتهم ومؤامراتهم ودسائسهم وجلاوزتهم، فيعتقد ويعلم أنّ تلك القوّة الماورائيّة تقف معه وتحميه وتمدّه. غاية الأمر أنّ الإنسان المادّيّ لا يتعرّف على اسم الله ولا يعتقد به، وإن لم يكن متيقّنًا بأنّ الله غير موجود. أمّا الإلهيّ الذي يمتلك اليقين بوجود تلك القدرة المسلّطة والمسيطرة والتي تقف وراء جميع هذه الظواهر، وهي تستند إليها، فانظروا كيف سيكون سريعًا ومنجذبًا في حركته على طريق

السعادة.

ثامنًا، أن يؤمن بأنّ التفوّق والرجحان على الجبهات والمعسكرات المخالفة سيكون له في النهاية، وسيكون الأعلى والأرجح والأكثر تفوّقًا؛ ولهذا الأمر بحدّ ذاته تأثيرٌ عجيبٌ يؤدّي لأن يطوي الإنسان هذا الطريق بكلّ سهولة ويسر.

تاسعًا، أن يؤمن بأنّه سينتصر على أعداء الطريق والموانع التي تقف بينه وبين الوصول إلى هدفه وتسعى إلى إحباطه. فتصوّروا أنّ الإنسان يبذل كلّ هذه المساعي ثمّ يفشل أو يُهزم في النهاية، وأنّه لن يصل إلى السعادة! فمن العناصر الأساسيّة لسعادة أيّ إنسان أن تكون عاقبته تحقيق الانتصار، وهل هناك شيءٌ آخر؟ ألا نشاهد المسالك الدنيويّة تقوم بكلّ ما تقوم به من أجل الانتصار؟ فإنّ من عوامل السعادة البشريّة والفرديّة والاجتماعيّة والجماعيّة، ومن عناصرها الأساسيّة هو الانتصار في النهاية عند مواجهة الأعداء.

عاشرًا، أن يصل في النهاية، بعد كلّ هذه الصعاب والضغوط والقيود والمحاصرات، إلى مقصوده وهدفه النهائيّ، إلى ذلك المقصد. وقد ذكرنا كلمتي «الفوز» و«الفلاح» بحسب التعبيرات أو العبارات القرآنيّة.

أحد عشر، أن يتمتّع ويستفيد في جميع أموره وأحواله وأثناء الطريق وعند الوصول إلى المقصد أو على طريق الهدف، من تلك الذخائر والنعم التي أُعدّت له في هذا العالم، فتهطل عليه بركات السماء والأرض، وتتفتّح أمامه كلّ ثمارها وأمطارها وذخائرها في الأرض والسماء والبحار والغابات والمناجم وكلّ الموارد الحيويّة وغير الحيويّة اللازمة لأيّ إنسان. والأهمّ من كلّ ذلك منابع الوعي والفهم والعقل والاستعداد والابتكار، فيتمكّن من الاستفادة منها جميعًا؛ فإنّ هذا الأمر يُعدّ من الأشياء التي لها دخالةٌ كبيرة في سعادة الإنسان. وأن يعلم كلّ ما هو من هذا القبيل ممّا يمكن أن يكون له دخالة في سعادته.

وفي النهاية، وبعد تحصيل كلّ هذه الشروط، والتي تتحقّق أثناء حياته وسعيه ويقظته وعندما يموت وينطفئ هذا المصباح ويظهر أنّ الأمر سوف يتوقّف ويجمد؛ يبدأ نوعٌ جديد من الاستفادة يكون بداية استراحته وأوّل ثوابه وأجره؛ ويُعدّ ذلك بداية الطريق والتحرّك نحو الراحة والعيش. إنّ الإنسان المادّيّ لا يعتقد بأنّه بعد أن يموت سيكون هناك أيّ نوع من النتيجة غير الدنيويّة، ولهذا فإنّه لن يأمل بكلّ المساعي التي يقوم بها ما بعد الدنيا. ولأمثال هذا نقول: يا فلان، إنّك بعد أن تموت وترتحل عن هذا العالم، فافرض محالاً وهو ليس بالمحال، كيف سيكون أوّل موتك وأوّل راحتك؟ انظروا، إنّ هذه القضيّة تُعدّ أكبر ركنٍ في السعادة. ففي النهاية وبعد انقضاء مرحلة الحياة الدنيا وانتهاء جميع المساعي سوف يقابل أجره اللائق ويرتحل إلى جنّة النعيم والرضوان.

هذه هي شروط السعادة، وكلّها ضروريّةٌ ولازمةٌ لأجل سعادة الإنسان أو المجتمع. والآن فلنستمع إلى كلمات **القرآن**، التي تبشّر كلّ من يحمل الإيمان، الإيمان الذي يتلازم مع المسؤوليّة والعمل، كيف يكون؟ يبشّر **القرآن** بجميع الأشياء التي تُعدّ عناصر السعادة وعوامل بنائها، هذه الأشياء وعشراتٌ غيرها تُقدّم لكلّ الذين التزموا بالإيمان. فيقول كتاب الله إنّ هذه الأشياء قد أُعدّت لكم، فلكم الهداية ولكم النور ولكم الطمأنينة والسّكون والرّوح والرّاحة، وسوف تثمر مساعيكم، ولن يضيع سعيكم. إنّنا سنشاهد جميع هذه الأشياء فيما لو نظرنا نظرةً مبصرةً إلى التّاريخ وإلى الماضي وإلى الوقائع التّاريخيّة والإنسانيّة ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

فانصتوا وتوجّهوا إلى آيات **القرآن**، فالآية الأولى من سورة **يونس**، والآيات المتفرّقة الأخرى في عدّة مواطن تشير إلى تلك الشروط. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[٧٩]، يتلازم العمل الصالح مع ذلك الإيمان. فالإيمان يلقي على عاتق الإنسان مسؤوليّات، فيما إذا

(٧٩) سورة **يونس**، الآية ٩.

قام بها وحملها، يكون قد عمل صالحًا. فالذين آمنوا وعملوا وفق إيمانهم والتزموا به، يهديهم الله وفق إيمانهم. الإيمان بذاته يوجب أن يتعرّفوا على الطريق، وهذا الطريق هو الذي يوصل إلى الهدف، وأيضًا يدلّ الإنسان على الوسائل والسبل التي يحتاج إليها.

يقول بعض الناس: أيّها السيّد كيف يمكننا أن نصل إلى المنزل المقصود؟ وعندما تتأمّلون في هذا السؤال ستجدون أنّ الإيمان بالخطوة الأولى ليس موجودًا في قلب السائل!، فلو كان الإيمان موجودًا لكان العمل متلازمًا معه، فإذا عمل ستكون الهداية والبصيرة من نصيبه، وسوف يتعرّف على الخطوة الثانية ويكتشفها، فسوف يُقال لك كيف ينبغي أن تسير[٨٠]. فعندما يتحرّك الإنسان المؤمن بالهدف على الطّريق ويتّبع هذا الإيمان فإنّ الطّريق سوف يتراءى له شيئًا فشيئًا ويستدلّ عليه، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ فبواسطة هذا الإيمان ينالون الهداية من الله وتُفتح الطرقَ والسبلَ أمامهم.

لم يكن أيّ واحد من القادة والعظماء والسالكين يعلمون من الخطوة الأولى كيف ستكون الخطوة العاشرة. وأنا، أضرب مثالًا في بعض الأحيان وأقول: إنّك لو كنت في بادية ما، تمتدّ لعشرات الكيلومترات أو أكثر طولًا وعرضًا، وكنت في حالك الظّلام فلا يوجد قمرٌ ولا نجمٌ، وأنت لوحدك تسير فيها، وكان بيدك مصباحٌ صغير من المصابيح اليدويّة التي لا يعادل ضوؤها أكثر من شمعة واحدة، فسوف يُقال لك: يا فلان، إنّ عليك أن تتحرّك بمثل هذا المصباح الخافت وتعبر هذه البادية. فأنت تنظر نظرةً ما وتقول: إنّ هذا المصباح لا يمتدّ شعاعه لأكثر من متر واحد ولا يضيء أمامي أكثر من هذه المسافة، فكيف ينبغي أن أقطع كلّ هذه المسافة الطويلة بشمعة واحدة؟ إنّ هذا هو منطق الجاهل عديم التجربة وقليل الخبرة. وكيف يكون الردّ على هذا المنطق الأعمى بنظركم؟ ألن تقولوا

(٨٠) من بيت شعر للعطّار النيشبوري.

لهذا الفلانيّ المحترم وتسألونه أليس هذا المصباح يمتدّ لمترٍ واحد؟ فتقدّم أنت خطوةً وسوف يضيء لك مترًا آخر، وإذا لم يحصل فلاً تتحرَّك. فإذا أضاء لك هذا المتر، يمكنك أن تخطو باتّجاهه وتعلم كيف تسير، وعندها سيضيء لك مترًا آخر، وهكذا. فسوف تجد أنّ هذا الضوء قد صاحبك حتّى آخر البادية وقد تمكّنت من قطعها بمثل هذا الشعاع الصغير وتصل في النهاية إلى مقصدك، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾، إنّ الإيمان بذاته يؤدّي إلى اكتشاف الطرق والسبل.

وقد أشير في العديد من الآيات القرآنيّة الأخرى إلى هذا الأمر، ففي أحد الموارد يقول الله سبحانه وتعالى فيها أنّه عندما كانت تنزل سورةٌ أو آيةٌ كان الكفّار والمخالفون والمنافقون ومرضى القلوب يقولون: ﴿أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً﴾، ويتساءلون إن كانت هذه الآيات قد زادت أيّ واحد منهم على صَعَيد الإيمان؛ وبعدها يجيب **القرآن الكريم** قائلًا: قولوا إنّ الذين آمنوا والذين اتّبعوا بإحسان ازدادوا إيمانًا بهذه الآية والعلامة. فإيمانهم القلبيّ هذا، أدّى إلى أن يستفيدوا من معدن هذه الهداية.

والآية الأخرى، ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[٨١]. فهو الدليل القاطع والواضح والحجّة الثابتة والمثبتة. فالمقصود من هذا البرهان والنور في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾، هو **القرآن** وحقائقه، والشاهد على ما نقول ما ورد في الآية اللاحقة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطًا مُسْتَقِيمًا﴾[٨٢].

إذن، أولئك الذين آمنوا بالله وتوكّلوا عليه وتمسّكوا به ولم يكتفوا بالإيمان القلبيّ، سينالون تلك العاقبة حيث يقول الله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾، ويتبعه ﴿يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطًا مُسْتَقِيمًا﴾، أي إنّ

(٨١) سورة **النساء**، الآية ١٧٤.

(٨٢) سورة **النساء**، الآية ١٧٥.

الله سبحانه وتعالى يدلّهم على نفسه ويهديهم إلى جواره، ويكون ذلك عبر الصراط القريب وهذه هي الهداية المختصّة بالمؤمنين. فلو لم تكونوا مؤمنين، أو لو كنتم مؤمنين ولكن لم تعتصموا ولم تلتزموا بمسؤوليّاتكم تجاه الله تعالى، ولم تتحرّكوا ولم تتعرّفوا على الطريق الموصل إليه، فإنّ ذلك النور الذي يهدي لن يضيء في قلوبكم لأنّه مختصٌّ بالمؤمنين.

يقول الله في موضع آخر تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فينا﴾، وهي آيةٌ معروفة يكثر ذكرها على الألسن، ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨٣]. أولئك الذين هم في طريقنا، فما هو طريق الله؟ يجاهدون لأجلِ الأهداف الإلهيّة التي هي كلّ هدف لله تعالى في هذا العالم. فما هي هذه الأهداف الإلهيّة؟ هي العدالة، والأمن، وعبوديّة الله، وإيصال عباد الله إلى الرشد والتكامل، وإعمار قلوب البشر، على المستويين الدنيويّ والأخرويّ، وحركة جميع الموجودات على سكّة التكامل. هذه هي الأمور التي يريدها الله: انعدام الظنّ، والشرك، والكفر، والاضطرابات الأمنيّة، وزوال الصراعات والعداوات والوحشيّة، وانعدام الطغيان والعصيان، كلّ هذه مطالب إلهيّة. ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فينا﴾ هم أولئك الذين جاهدوا على طريق الأهداف والمطالب الإلهيّة، فلا شكّ ولا ريب أنّ الله تعالى سيطلعهم على طرقه ولن يضلّهم أو يغويهم. فذاك الشعر الذي قرأته يناسب موردنا هنا:

تو پای به راه درِ نه وهیچ مپرس ... خودْ راه بگویدت که چون باید رفت

ضع قدمك على الطريق ولا تخف ... فسوف يُقال لك كيف ينبغي أن تسير

وهذه الهداية لسبل الله تشير إلى جميع فروع الحياة وشؤونها. ففي مجال فهم الدين وإدراكه، وفي مجال التحقيق في المسائل الدينيّة والقضايا الاجتماعيّة والمسائل العالميّة، وفي جميع الفروع، فإنّ كلّ من ينزل إلى ميدان

(٨٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.

تحقّق الأهداف الإلهيّة ويتحرّك على هذا الأساس، فإنّ كلّ خطوةٍ يخطوها ستؤدّي إلى وضوح الطريق أكثر. أولئك الذين يجاهدون على هذا الطريق الإلهيّ ومن أجل الأهداف الإلهيّة فسوف يهديهم الله تعالى إلى طرقه التي هي طرق السعادة والتكامل الإنسانيّ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٨٤]. كانت هذه الآيات في مجال الهداية وذاك هو الموضوع الأوّل الموجود في **القرآن**. ويوجد الكثير من الآيات الأخرى التي لو أردت أن أجمعها وأقرأها وأدوّنها لكم، فإنّنا سنحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أيّام كحدٍّ أدنى. هذا فيما إذا أردنا أن نتحدّث عن الهداية فقط.

لقد قلنا إنّ النور هو من الأمور الضروريّة لسعادة الإنسان، مع ذلك التوضيح الذي قدّمناه بشأن النور. لقد وُعد المؤمنون بالنور، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٨٥]، فأنا أفسّر الوليّ بمعنى الذي يكون حليفًا وملازمًا ومرشدًا وحبيبًا وناصرًا، هذه هي الأمور التي أرجّحها، لأنّ الولاية بمعنى الارتباط، فإذا ارتبط شيئان معًا تتحقّق الولاية بينهما، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي إنّه يرتبط بالمؤمنين. فماذا يعني هذا الارتباط؟ أنّ الله والمؤمنين في صفٍّ واحد، وأمّا أعداء الله فهم في الصفّ المقابل للمؤمنين ولله. فأينما وردت كلمة «الوليّ» كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أو أولياء الله، وغيرها من الألفاظ الواردة في **القرآن الكريم** فإنّها ستكون بهذا المعنى. فأرجو أن تلتفتوا إلى هذه القضيّة هنا.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وهنا أقدّم توضيحًا لا بأس بإدراجه من أجل فهم معنى الظلمات. اللهَ يخرج ويخلّص أولئك من ظلمات الجهل والخُرافة والغرور والأنظمة الاستبداديّة والمعادية للإنسانيّة، وكلّ تلك الأشياء التي تُعَدّ سجنًا وتضييقًا وحبسًا لجوهر الفكر البشريّ، إنّ الله سيخرجهم من الظلمات ويوصلهم إلى النور، فأيّ نورٍ هو؟

---

(٨٤) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.

(٨٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

هو نور المعرفة والقيم الإنسانيّة. هذا ما يفعله الله مع المؤمن. ولا يمكن لغير المؤمن وللشكّاك والكافر والكفور أن يصل إلى هذا النور.

لهذا، فإنّ المشرك مضطربٌ دومًا ويعيش القلق وحياته متلازمة دائمًا مع الاضطراب وليس له النور ولا المعرفة الواقعيّة ولا العلم الصحيح، مهما بلغ. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، أمّا الكفّار فماذا يحدث معهم؟ الكفّار هم أولئك الذين لم يقدّروا قيمة العقيدة الدينيّة والدين، فكفروا بهذه الهديّة الإلهيّة وكفروا بالنعمة. وأرجو الدقّة هنا بالعبارات الفارسية التي أذكرها فإنّها تشير إلى منشأ الجذر اللغويّ وكيف استُعملت هذه الكلمة من حيث المعنى، فالكافر ليس مَن لا يقبل الدين، بل الكافر هو من يخفي النعمة وينكرها، فلماذا يقال له كافر؟ حسنٌ، إنّ هذا لم يقبل الدين، فلماذا يُعدّ كافرًا؟ ذلك لأجل أنّه قد رفض الدين الذي يُعدّ هديّة إلهيّة لأجل سعادته وسعادة البشريّة، فأصبح بذلك كافرًا للنعمة ولهذا يُقال له كافر، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ ، قادتهم وحلفاؤهم الطواغيت والمعتدون. ﴿ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ ، فيعني ذلك أنّهم أخرجوهم من نور المعرفَة إلى سجن الظَلَمات الحالَكة، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[٨٦]. فذكر الله ينبغي أن يكون في الصَباح والمساء وذلك على أساس تنزيهه عزّ وجل. فما الذي قد حدث؟ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ ، لماذا؟ ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٨٧]، هذا هو **القرآن** وهذه هي بشارته. ويَوجد من هذه البشَائر عددٌ آخر لا مجال لذكرها، ولو أردنا أن نبيّن جميع هذه البشائر القرآنيّة وما وُعدنا به على لسان **القرآن** فمن المسلّم أنّنا سنحتاج إلى مجلّدات، لهذا، سوف نكتفي بهذا القدر.

وفي النهاية، وبعد تحصيل الإنسان لكلّ هذه الشروط من السعادة،

---

(٨٦) سورة **الأحزاب**، الآية ٤١ و٤٢.

(٨٧) سورة **الأحزاب**، الآية ٤٣.

والتي تتحقّق أثناء حياته وسعيه ويقظته وعندما يموت وينطفئ مصباحه ويظهر أنّ الأمر سوف يتوقّف ويجمد؛ يبدأ نوعٌ جديد من الاستفادة يكون بداية استراحته وأوّل ثوابه وأجره؛ ويُعدّ ذلك بداية الطريق والتحرّك نحو الراحة والعيش.

إنّ الإيمان بذاته يوجب التعرّف على الطريق، وهذا الطريق هو الذي يوصل إلى الهدف. فعندما يتحرّك الإنسان المؤمن بالهدف على الطريق ويتّبع هذا الإيمان، فإنّ الطريق سوف يتراءى له شيئًا فشيئًا ويستدلّ عليه وتُفتح السبل أمامه.

وأولئك الذين آمنوا بالله وتوكّلوا عليه وتمسّكوا به ولم يكتفوا بالإيمان القلبيّ، فإنّهم سينالون تلك العاقبة أي إنّ الله سبحانه وتعالى يدلّهم على نفسه ويهديهم إلى جواره، ويكون ذلك عبر الصراط القريب وهذه هي الهداية المختصّة بالمؤمنين.

والذين يجاهدون على طريق الأهداف والمطالب الإلهيّة، لا شكّ ولا ريب أنّ الله تعالى سيطلعهم على طرقه ولن يضلّهم أو يغويهم؛ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الوليّ هو الذي يكون حليفًا وملازمًا ومرشدًا وحبيبًا وناصرًا، أي إنّ الله والمؤمنين في صفٍّ واحد، وأمّا أعداء الله فهم في الصفّ المقابل للمؤمنين ولله.

أمّا الكفّار هم أولئك الذين لم يقدّروا قيمة العقيدة الدينيّة والدين، فكفروا بهذه الهديّة الإلهيّة وكفروا بالنعمة. فالكافر ليس من لا يقبل الدين، بل هو من يخفي النعمة وينكرها.

الجلسة السابعة: البشارات

الأربعاء، ٨ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٨٨].

(٨٨) سورة **الرعد**، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

ذكرنا أنّ اللّه تعالى يعطي للمؤمنين في **القرآن** البشارة والوعد بجميع عناصر السعادة. تلك الأشياء التي ننالها كعناصر للسعادة في مقام الفكر والتصوّر حيث بيّنّا حوالي ١١ عنصرًا منها في الجلسة السابقة. وقد قُدّمت جميعها في **القرآن** كبشائر قطعيّة للمؤمنين. وقد تكلّمنا حول بشارتين من تلك البشائر، وهما: الهداية والنور، واستفدنا منها ضمن تلاوة الآيات القرآنيّة. وفي هذا البحث نتحدّث عن اثنتين منها ونسعى لاستخراجها من متن الآيات القرآنيّة.

مثلًا، من تلك الموضوعات الثواب الأخرويّ الذي يُعدّ من تلك البشائر. كذلك العلوّ والتغلّب على العدوّ. فانظروا في **القرآن الكريم** هل يوجد شواهد يذكر فيها اللّه تعالى للمؤمنين أنّهم سينتصرون على أعدائهم ومعارضيهم فيما لو تمسّكوا بإيمانهم والتزموا بمسؤوليّات الإيمان وفيما لو سعوا على طريق فكرهم؟ هل يوجد مثل هذه الآية في **القرآن** أم لا؟

يقول اللّه تعالى في محكم آياته: ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٨٩]. في هذه الآية يربط اللّه تعالى الإيمان بالعلوّ والاقتدار والتفوّق على العدوّ. ويوجد آياتٌ عديدة أخرى تبشّر وتعد المؤمنين بالنصر القاطع على أعدائهم ومعارضيهم: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾[٩٠]، ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٩١]. ويوجد من قبيل هذه الآيات الكثير، فضعوها في الحساب، وتأمّلوا في **القرآن** وطالعوه، وبدل أن يكون سعيكم من أجل إنهاء جزءٍ بأكمله أو سورة كاملة اسعوا أن تفهموا القرآن؛ كما جاء في حديث عن أمير المؤمنين (ع) في معناه: ولا يكوننّ همّ أحدكم عند تلاوة **القرآن** آخر السّورة[٩٢]. فسواءٌ أتمّ السورة أم الجزء أو لا، فليقرأ آية في تدبّرٍ ودقّة. فانظروا عندها

---

(٨٩) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٩.

(٩٠) سورة **المجادلة**، الآية ٢١

(٩١) سورة **الصافات**، الآية ١٧٣.

(٩٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٩، الصفحة ٢١٦.

إذا كان في الآية تلك مثلُ هذه البشائر التي تحدّثنا عنها وذكرناها ـ وهي التي تتعلّق بالأركان والعناصر الضروريّة للوصول إلى السعادة ـ فهل تجدون مثل هذه العناصر في **القرآن** ممّا يبشّر به؟ هل أنّها على شكل البشارة والوعد أم لا؟ أرجو منكم أن تراجعوا **القرآن** بهذه الطريقة.

وأنا أودّ، إن حالفني التوفيق، أن أترجم حتّى آخر شهر رمضان الكثير من الآيات القرآنيّة وأفسّرها لكم. وعليكم أن تحقّقوا حالة الأنس مع **القرآن**، والذين يعرفون العربيّة فليسعوا ليرسّخوا حالة الأنس والصحبة بينهم وبين **القرآن**. والذين لا يعرفون اللغة العربيّة وضمن سعيهم لتعلّمها والتعّرف على لغة **القرآن** أن لا يتركوا قراءة **القرآن** وفهمه إلى ما بعد تعلّم تلك اللغة. الآن، عليهم أن يقرؤوا **القرآن**؛ غاية الأمر أن يجدوا ترجمات جيّدة - حيث أنّ بعض الترجمات بنظري جيّدة ومناسبة - فإذا قرأتم **القرآن** التفتوا إلى تلك الترجمات، ودقّقوا وتدبّروا في معاني الآيات، وانظروا ماذا تستطيعون أن تجدوا في **القرآن** من هذه البشائر التي ذكرناها هنا.

ولهذا، إنّني سأذكر موضوعين آخرين مورد البحث بشأن هذه البشائر التي وردت في **القرآن**، وسوف أترك ما بقي منها على عاتقكم، وأملي أن لا تتركوا الأمر إلى ما بعد شهر رمضان أو إلى وقت العطلة والفراغ. فافتحوا **القرآن** عند أوّل فرصة وعند أوّل فراغ واقرؤوه بهذه النيّة، وعلّموا أنفسكم معرفة **القرآن** والأنس والاستفادة منه، فإنّ **القرآن** في نهاية الأمر هو منبعٌ لا نهاية له من المعارف، وكلّ ما لدينا فإنّنا نستفيده من هذا الكتاب، وكلّ ما يوصل إلى السعادة والفلاح يجب أن ندركه فيه؛ إنّ هذا هو النصّ الواضح القطعيّ الذي جُعل بين أيدينا وعلينا أن نستفيد منه.

بالطبع، عندما أقول **القرآن** لا أريد أن أحصر الأمر به وأنفي **نهج البلاغة** والأحاديث الصحيحة والموثقة المنقولة عن أئمّة الهدى عليهم السلام. كلّا، فإنّ علينا أن نستفيد منها أيضًا. بالطبع، إنّ **القرآن** نصٌّ

موضوعٌ في متناول الجميع، ويمكن للجميع أن يحملوا النسخة الصحيحة والكاملة حتّى في جيوبهم، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالنسبة للأحاديث وكذلك بالنسبة لنهج البلاغة.

بالإضافة إلى ما ذُكر من البشارات، نشير إلى كلمات: الاطمئنان والسكينة والأمن وقد اعتبرناها متقاربي المعنى ضمن إطارٍ واحد، وذكرنا ما نقصده من هذه الكلمات الثلاث سابقًا، والآن نعود إلى الآيات القرآنيّة لنرى في نفس هذا المجال ما يمكن أن نتعلّمه. فالطمأنينة هي حالةٌ من الاستقرار القلبيّ وهي تمنح الهدوء للروح والقلب؛ فما هو هذا الهدوء؟ وما هو المعنى المقصود من قبلنا بشأن هذا الهدوء في هذا المورد؟ هل المقصود أن تكون أرواحنا فاقدةً لأيّ نوعٍ من التحرّك والسعي؟ هل أنّ الهدوء والطمأنينة أن تكون قلوبنا في حالةٍ شبيهة بالنوم أو فقدان الوعي؟ كلّا، بل إنّها عبارة عن السكون والهدوء مقابل الهواجس والاضطرابات؛ فكان الاطمئنان في مقابل التشويش.

لو أخذتم شخصين بعين الاعتبار، وكان المطلوب من كلّ واحدٍ منهما أن يشارك في الامتحان، وكان أحدهما قد درس ما هو مطلوبٌ منه بشكلٍ جيّد، ولعلّه راجعه أكثر من عشر مرّات، وتباحث بشأنه مع أصدقائه، وأحاط بكلّ مسائل الكتاب الذي ينبغي أن يُمتحن به، وأصبحت مسائله واضحةً وبيّنةً بالنسبة له؛ أمّا الآخر فإنّه لم يقرأ الكتاب، أو أنّه قرأ مقدارًا بسيطًا منه، أو أنّه لا يقدر على الاعتماد على ذاكرته بشكلٍ جيّد؛ وجاء وقت الامتحان الإلزاميّ، فهل يكون لكلّ واحدٍ منهما الحالة الروحيّة نفسها؟ سوف ترون أنّ الشخص الأوّل عندما يدخل إلى قاعة الامتحان تكون نفسه هادئةً ولا تتلاطم فيها أمواج الاضطراب والهواجس والتشويش، وها هو يقول في نفسه إنّني سأجيب عن أيّ سؤالٍ يُطرح عليّ؛ أمّا الآخر فهو في بحرٍ متلاطم يشبه الزورق الذي يعبر المحيط الهائج أو البحر العاصف، تتقاذفه الأمواج من كلّ جانب وتراه يسلك ذلك الطريق، ثمّ بعدها يصبح

على طريقٍ آخر، تعصف به الرياح من كلّ جانب، هكذا تكون الحالة الروحيّة لهذا الإنسان غير المستعدّ. ويمكنكم أن تحسبوا هاتين الروحيّتين مقابل أيّ قاضٍ. ويمكنكم أن تتفحّصوا هاتين الحالتين الروحيّتين بالنسبة لأيّ فردٍ أو مجتمعٍ فيما يتعلّق بالأنشطة الاجتماعيّة والمواجهات الاجتماعيّة عبر التاريخ.

ولنتأمّل في حال جنديّين يقتحمان ميدان المعركة ولكلٍّ منهما نوعٌ خاص من الروحيّة؛ أحدهما يعتقد باستحكام تجهيزاته العسكريّة، وبحسن قيادته، وبتدبير رؤسائه وقادته وإدارتهم، وبجهوزيّة زملائه وإخوانه، وبضعف قوّات العدوّ وجهوزيّته؛ بالإضافة إلى ذلك، يعلم بأنّ قوّات الإسناد تنتظر أيّة إشارة في تلك الجهة خلف الجبهة لتأتي مسرعةً إلى الميدان وتقدّم الدعم، وهو على هذه الحالة يتقدّم نحو الحرب أو المعركة. أمّا الجنديّ الآخر، فإنّه لا يثق بتجهيزاته العسكريّة، ولا بجهوزيّة مَن معه، ولا بفاعليّة أسلحته، بل يرى نفسه قليلًا ويرى العدوّ كثيرًا، وينظر إلى نفسه كأنّه خِلو من الأسلحة، بينما يرى عدوّه غارقًا من رأسه إلى أخمص قدميه بالدروع والأسلحة، فكيف سيرد ميدان الحرب؟!

إنّ هذه بعض النماذج المرتبطة بالطمأنينة. وإنّني أريد أن أبيّن لكم المعنى الدقيق لاطمئنان النفس حتّى تتّضح الصورة، ونسأل أنفسنا عن النفس المطمئنّة والقلب المفعم بالهدوء. فالجنديّ الأوّل مطمئنٌّ وقلبه هادئٌ. القلب المطمئنّ لا يعني أنّ الجنديّ إذا نزل ميدان الحرب سوف يخلع نعليه ويضعهما تحت رأسه ويتمدّد وينام ويتأمّل في السماء. كلّا، فالاطمئنان لا يعني أن يقول الإنسان إنّني إذا كنت في وسط الميدان فلأدخّن سيجارة، ولنتمشّى قليلًا ونحن نتأمّل المشاهد، ولا يهمّنا ما يحدث، كلّا، ليس الأمر كذلك. إنّه لا يعني أن تبقى أقلّ تحرّكات العدوّ مخفيّةً عن نظره. إنّه يعني أن لا يكون مضطربًا ومشوّشًا بل أن يكون المستقبل بالنسبة له واضحًا وهو يعلم أنّه سيتقدّم، ولهذا فهو لا يخاف. القلب والروح الهادئان

كسفينة تمخر عُباب البحر الهادئ، بالرغم من حمولتها الزائدة وما فيها من تجهيزات كثيرة.

أمّا غير المطمئنّ فهو كالقارب الصغير أو كقطعة الخشب التي تتحرّك في بحر متلاطم أو نهر جارف، فهي في حالة اضطراب دائم، تنتقل من خطٍّ إلى خطّ في حركتها. هكذا نقف على نحوين من الروحيّة. وأضرب مثالًا آخر حول الاطمئنان، ونقترب بالتدريج إلى تلك الروحيّة التي يتحدّث عنها **القرآن**. نبدأ من مثال الامتحان الدراسيّ ونمرّ عبر المتّهم في محكمة جنائيّة لنصل إلى ذلك الجنديّ في ميدان المعركة. يوجد نموذجٌ آخر هو ذلك الإنسان الذي وضع نفسه على الطريق وهو يتحرّك قاصدًا الوصول إلى هدف ما، ومن الممكن أن يعرض عليه عشرات الدوافع التي تصدّه عن طيّ هذا الطريق والاستمرار في السير نحو الهدف، والخوف يُعدّ من هذه الدوافع: الرعب والوجل والفزع. فمن الممكن أن يكون سبب الخوف أن لا يستمرّ في سيره. الخوف من أيّ شيء؟ الخوف من الجوع، من قطّاع الطريق، والخوف من الذئاب المفترسة التي يمكن أن تكمن له، والخوف من المتاعب والأرق، وفي النهاية الخوف من عدم الوصول. فهذه إحدى نماذج الأمور التي يمكن أن تمنع الإنسان من أن يتحرّك أو يستمرّ في السير والتقدّم.

والطمع دافعٌ آخر. الطمع بأيّ شيء؟ الطمع بالحياة المريحة. فيقول في نفسه إنّني بدل أن أسير على هذا الطريق وأتحرّك نحو المقصد فلأستلقي وأنام وأستمتع بدفء السرير ونعومته وأبقى بين أبنائي وزوجتي الحبيبة، ومثل هذا الشيء يُعدّ بالنسبة للإنسان العاديّ أو الإنسان الصغير أو صاحب الروح الضعيفة هدفًا وأمرًا محبوبًا ومطلوبًا، فيكون بالنسبة له أمرًا مرغوبًا؛ ومن الواضح أنّه لن يكون مستعدًّا للتخلّي عنه بسهولة. فيكون الطمع بالحياة المريحة، أو بالمال الذي سوف يتقاضاه إذا لم يتحرّك على هذا الطريق، وكذلك الطمع بالوصول إلى تلك المقامات إذا لم تَقبل

بمثل هذا التشريد، فكلّ هذه المناصب ستكون من نصيبك.

فالدوافع التي تمنع الإنسان من سلوك هذا الطريق هي: الأطماع والمخاوف. ولو قمنا بالغور في الخوف، لوجدنا عشرات النماذج؛ وهكذا بالنسبة للطمع وطلب الراحة والعافية والفرص والانتهازيّة وأمثالها.

حسنٌ، خذوا على سبيل المثال شخصًا سالكًا طريق المغامرة كما يقول الناس اليوم، فوضع قدمه على هذا الطريق وبدأ بالتحرّك، وهو يسير، ولكن هل تنتهي تلك الدوافع؟ وهل زالت تلك المعارضات التي لا تسمح للإنسان أن يسلك هذا الطريق ويتحرّك عليه؟ كلّا، إنّها لا تنعدم. فتأمّلوا جيّدًا! هذه المعارضات تسعى جهدها أن لا يتحرّك منذ البداية وأن لا ينزل إلى الميدان ويسلك هذا الطريق البعيد؛ وفي حال قرّر النزول والتحرّك، فإنّها لن تسمح له أن يطوي الطريق بسهولة وهدوء. فكلّما تقدّم خطوةً، فإنّها ستكون مثل شوكة أو كمّاشة أو مجموعة من الأغلال التي توضع في قدمه أو تمسك بثيابه ويده وتجرّه وتريد أن تمنعه من الاستمرار على هذا الطريق. وكلّ واحدة من هذه العوائق تشدّه باتّجاه، فهذه الشوكة من جهة، وتلك الأغلال من جهة، وهذا العشق للولد من جهة أخرى، وهذا التوجّه إلى الحياة المريحة وهكذا، فتنهال عليه هذه الدوافع المختلفة من كلّ جهة وتجرّه نحوها، فيقع هذا الإنسان بالتزلزل مثل ذلك الزورق الذي تعبث به الأمواج المتلاطمة. وهناك إنسانٌ، إذا نزل إلى الميدان وسار على هذا الطريق، ينبعث فيه عاملٌ موجّهٌ ينسيه كل تلك الدوافع الصغيرة. فنجد أنّ تلك الجاذبة التي تأخذ بمجامع قلبه قد جعلت تلك الجاذبيّات الصغيرة، كجاذبيّة الولد والمرأة والحياة والمال والمنصب، صغيرةً حقيرةً في مقابلها، بحيث تعدمها وتفقدها التأثير، كمَثَل عشرات المغانط التي تجذب هذا الجسم الصغير إليها من كلّ جهة، ثمّ يأتي مغناطيسٌ قويٌّ جدًّا فيبطل تأثير كلّ تلك المغانط بينما هي تسعى لجذب برادة الحديد المتناثرة.

فمثل هذا الإنسان، عندما يسلك هذا الطريق مع هذه الجاذبة القويّة

والروحيّة المتينة وينشغل بسلوكه، فإنّ كلّ تلك الجاذبيّات؛ المرأة والولد والأشياء الأخرى والجماليّات والراحة والملذّات والمرغّبات، لن يبقى لها أثرٌ عليه. فمن هو هذا الإنسان؟ إنّه الإنسان المطمئنّ. ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[٩٣]. الذي يمكنه أن يطوي طريق اللّه إلى النهاية ويصل إلى الهدف المقصود، هذا هو معنى الاطمئنان؛ فهو يشبه ذلك الشيء الذي يجذبه، إنّه جاذبة الإيمان، وجاذبة حبّ اللّه والارتباط بالهدف، فلا يبقي فيه أيّ شيءٍ من تأثير تلك الجاذبيّات الأخرى ويجعلها كأيّ شيء. فلا معنى أن يكون هناك مثل هذه الأرض بكلّ ضخامتها، والتي تجذب كلّ جسمٍ إليها، ثمّ يأتي على سبيل الفرض جسمٌ أو جبلٌ - ولو كان جبل هملايا، ولو كان أكبر جبال العالم - فيتظاهر ويتفاخر. فأنتم مثلًا ترمون حجرًا فيجذبه جبل هملايا إلى نفسه، كلّا، إنّ لجبل هملايا جاذبيّة لكنّها تساوي صفرًا مقابل جاذبيّة الأرض ولن يكون لها أيّ تأثير. إنّ جبل هملايا، وكلّ جسم بمقداره، يمكن أن يكون له أثرٌ ويجذب الأجسام الصغيرة إليه، فيما لو لمً يكن ذلك الجسم الكبير، كالأرض، إلى جانبه. فعندما تكون جاذبيّة الأرض، لن تكون جاذبيّة جبل هملايا شيئًا مذكورًا.

عندما يكون الإيمان باللّه موجودًا في روح الإنسان، فإنّه سيعمل مثل الجاذبيّة القويّة التي تجذبه نحو المقاصد الإيمانيّة، بحيث لا يبقى أيّ تأثير لكلّ أنواع الجاذبيّات الصغيرة التي تبدو بالنسبة لعديمي الإيمان كبيرةً، ولكنّها ليست بشيء أمام الإيمان. وما أكثر الشواهد التاريخيّة التي نطّلع عليها من صدر الإسلام بشأن تلك الوساوس التي تعترض قلب الإنسان، لكنّنا لا نجد وقتًا كافيًا لذكرها هنا، فأتمنّى عليكم أن تبحثوا عنها وتجدوها بأنفسكم؛ تلك الجاذبيّات العجيبة التي جرّت إليها أفرادًا كثيرين.

وبعدها تأتي الجملة الثانية حول السكينة، ﴿ثمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى

(٩٣) سورة **الفجر**، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

رَسُوله﴾[٩٤]، وقد استخدم هذا اللفظ في خمسة أو ستّة موارد في **القرآن** ترتبطَ بمجالات حسّاسة ومصيريّة، كما ورد في معركة حُنين.

ففي هذه المعركة، وبعد ما أُصيب جيش النبيّ الغرور، وظنّوا أنّهم لن يُهزموا، طُبّقت سنّة الله، التي تقضي بأن يُذَلّ المغرور، وكلّ جماعة مغرورة ينبغي أن تُبتلى بالغفلة وتتلقّى الضّربة. فالانتباه والإحساس الشديد هو أمرٌ ضروريّ لكلّ إنسان ولكلّ شعب ومجتمع، حيث يقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه في نهج البلاغة: «والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم»[٩٥]، ويعني بذلك أنّه لا يمكن أن يكون كمن ينام عند الربت على جنبه حتى يأخذه النعاس، فينام ويتمّ صيده. فأمير المؤمنين (ع) يقول: لا أؤخذ على حين غرّة بل إنّني في حالة يقظة دائمة، وسنّة الله تقضي أنّ كلّ مَن لا يكون كذلك يجب أن يتلقّى الضربات. فهؤلاء قد غفلوا في ميدان الحرب وكان لهم ذلك ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٩٦]، ما جعلهم يصابون بالغرور والعجب وقالوا فيما بينهم: إنّنا أكثر من أن نُهزم. فيقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾، فأدّى ذلك إلى أن يُحاط بهم ويُهزموا. وبعد أن تلقّوا هذه الضربة القاصمة، والتي لم تصل إلى حدّ الهزيمة النهائيّة، رجعوا إلى أنفسهم بسرعة، وقام بعض المجاهدين الشجعان والقادة المتنبّهين المؤمنين وأمير المؤمنين وآخرون ببذل جهد كبير لأجل استرجاع الجيش الذي أشرف على التمزّق؛ عندها يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهناك جدّد المسلمون بيعتهم للنبيّ.

وقد حدث ذلك مرّة أخرى تحت تلك الشجرة في البيعة المعروفة؛ وأخرى مع النبيّ حينما هاجر إلى المدينة من أجل تشكيل المجتمع الإسلاميّ.

---

(٩٤) سورة **التوبة**، الآية ٢٦.

(٩٥) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٤٢.

(٩٦) سورة **التوبة**، الآية ٢٥.

وبالرغم من كلّ المؤامرات الخبيثة التي أعدّها الكفّار والأعداء، ومع كلّ ذلك العزم والقدرة، وكلّ ذلك التفكير، استطاع النبيّ أن يخرج ويوصل نفسه إلى المدينة. فكان شرط تحقّق جميع كلّ تلك الأهداف والأفكار وكلّ ما أراد النبيّ هو بأن يصل إلى المدينة سالمًا؛ لأنّه لو قُتل النبيّ أثناء الطريق وتمكّن الكفّار منه فإنّه لن تتحقّق أيّة واحدة من تلك الرؤى. فلجأ النبيّ إلى ذلك الغار وهناك يقول الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، فقد كانت السكينة من نصيب قلب النبيّ في تلك الواقعة الحسّاسة؛ وهناك موارد أخرى أيضًا. وإنّ للمؤمن سكينة أيضًا، فالسكينة والهدوء وسكون النفس لا يعني عدم التحرّك والنوم والغفلة.

كما يوجد جملةٌ أو كلمةٌ أخرى في نفس المجال هي «الأمن». ومن الواضح هنا أنّ المراد هو الأمن الروحيّ لا الأمن الاجتماعيّ. فالأمن الاجتماعيّ بالطبع هو أن يتمتّع جميع الأفراد بهدوءٍ في المجتمع لكي يتمكّن كلّ واحد منهم من تحصيل حقّه. والسكوت الإجباريّ هو غير الأمن، فالأمن عبارة عن أن يتمكّن جميع الناس من تأمين حقوقهم ومطالبهم المشروعة بمنتهى الأمن، هذا هو الأمن الذي نتحدّث عنه؛ وهو غير الأمن الذي يُطرح في مجال القضايا الاجتماعيّة والأمن الاجتماعيّ، إنّ هذا الأمن هو الأمن الروحيّ وانعدام التزلزل وعدم الاضطراب وعدم وجود الخوف والرعب.

والآن، انظروا إلى آيات **القرآن** ماذا تقول لنا بشأن المؤمنين في مجال هذه الصفات الثلاث. في سورة **الرعد** آيتان صغيرتان ٢٨ والآية ٢٩ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنّ ذكر الله هو تلك الجاذبيّة القويّة التي ذكرت أنّها تمحو كلّ الجاذبيّات الصغيرة وآثارها. فلماذا أوليت الصلاة كلّ هذا الاهتمام؟ لماذا قيل إنّه إذا لم تُقبل الصلاة فلا تُقبل الأعمال الأخرى؟ لماذا قيل إنّ لمكّة في العمر مرّة واحدة؟ وللصوم في السنة مرّة واحدة؟ وللزكاة موردٌ خاصّ؟ وهكذا الخمس، وغيرها من العبادات؛ لكنّ الصلاة كانت واجبةً كلّ يوم، وفي كلّ يوم خمس مرّات، ولو

زاد الإنسان لكان أفضل، فلماذا قيل ذلك؟ من أجل أنّ الصلاة - لقد تحدّثت بشأنها في عدّة لقاءات، ولعلّ بعض الحاضرين المحترمين يتذكّر - هي جرعة ذكر الله، فهي من أوّلها إلى آخرها ذكر الله. لهذا، فإنّ القرآن، وبعد أن يقول إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، يتبعها قائلًا: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر ﴾. فهذا البعد في الصلاة هو الأهمّ، فهذا أعلى ما فيها، وهذه الخَاصّيّة الأكبر للصلاة وهي ذكر الله. فذكر الله، والتوجّه إليه، والنظر الدائم إليه، ومعرفته، واستحضار وجوده الدائم، كلّ ذلك فيه خاصيّة مهمّة وهي عبارة عن صيانة القلب من كلّ أنواع الاضطراب والوساوس والهواجس والإغراءات المختلفة في جميع الأمور؛ وفي كلّ الطريق، هذا الذي يمنح القلب الطمأنينة. فذكر الله هو كالثقل الذي يوضع في القارب، فيثبّته ويقلّل من اضطرابه واهتزازه.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالذين آمنوا وثبّتوا قلوبهم بذكر الله وحصلوا على الطمأنينة - وقد جئت بلفظ الثبات هنا عن عمد، أي تلك الحالة من الهدوء - فإنّهم سيحصلون على الهداية التي توصلهم إلى الله. وقد ذكرت بين قوسين تعبير «الهدية إلى الله» لأنّ الآية - كما قلت - ترتبط بما قبلها وقد ذُكِر في الآية السابقة موضوع الهداية إلى الله ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾.

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب ﴾ فلذكر الله خاصّيّة عجيبة وأنتم ترون كم للطمأنينَةَ والسَكونَ والثبات من تأثيرٍ على نجاح الإنسان وموفّقيّته. فللمؤمن هذه الميزة وهو يتمتّع بهذه القدرة الروحيّة العجيبة. ثمّ يتبعه قائلًا: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب ﴾، فالذين آمنوا وعملوا بمقتضيات الإيمان وتَحمّلوا المسؤوليّات المتناسبةً مع الإيمان لهم بشارةٌ في الحاضر والمستقبل. وهذا هو الاستنتاج الذي استخرجته من قوله تعالى: ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب ﴾، فترجمته تتفاوت قليلًا مع هذه الجملة التي ذكرتها، ولكنّها، بصورةٍ مختصرة وكاستنتاج، عبارة عن أنّهم اليوم في وضعٍ جيّد وفي المستقبل كذلك، فدنياهم حسنةٌ وآخرتهم كذلك؛

وهذا هو الأمر في الواقع، فإنّ المجتمع المؤمن، أي ذلك المجتمع الذي يعمل على أساس تحمّل المسؤوليّات الإيمانيّة، سوف تكون دنياه عامرة وآخرته كذلك، فتكون دنياه جنّة وآخرته كذلك.

وفي هذا الصدد أذكر بحثًا متعلّقًا باحتجاج إبراهيم على قومه. فإبراهيم، خليل الرحمن وداعي التوحيد، حاجّ قومه في زمانه في القرون الماضية فجادلوه وهو جادلهم وأجاب على كلامهم، وقد نقل **القرآن** هذه الاحتجاجات وذكرها لنا، فيقول تعالى: ﴿وَحاجَّهُ قَوْمُه﴾[٩٧]، أي إنّ قوم إبراهيم قد جادلوه وكان المقرّر أن يتباحثوا معه، ولا يذكر **القرآن** ماذا قالوا وما هي الكيفيّة التي تباحثوا فيها معه وماذا كان كلامهم، لكنّ الإنسان يتفطّن من خلال جواب إبراهيم الذي قدّمه لهم ونقله **القرآن**، ما الذي يمكن أن يكون كلامهم.

﴿قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّه﴾، فعندما كان من المقرّر أن يجادلوه ويحاجّوه قال لهم: ﴿أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّه وَقَدْ هَدان﴾ فأنا على بيّنة ولا أشكّ في طريقي لكي تستغلّوا هذا التردّد والشكّ وتَحرّفوني عنه ببحثكم وجدالكم. فقوله: ﴿وَقَدْ هَدان﴾، يشير إلى اكتشاف الطريق والبصيرة والمعرفة بما ينبغي أن يفعل. ﴿وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ به إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، فهو بذلك يعلن عن عدم خوفه ممّا جعلوهَ من شَرَكاء للّه، وهو يعلن في الحقيقة عن انحصار خوفه باللّه. فإنّني أتوجّس من الأحداث التي يمكن أن يضعها اللّه تعالى أمامي على الطريق ومن المستقبل الذي أعدّه اللّه لي وفقط، ولكنّني لا أخشى من أولئك الذين جعلتموهم شركاء للّه، وهنا يمكن أن يُعلم شيءٌ مختصر وبعدها يُعلم المزيد. نستنتج من هذا الجواب أنّهم كانوا يقولون لإبراهيم: يا إبراهيم عليك أن تخاف من الشركاء الذين جعلناهم للّه؛ فهؤلاء يمكن أن يؤذوك ويمكن أن يقتلعوك من جذورك ويسوّدوا دنياك ويجعلوا دهرك مرًّا، لا بدّ أنّ ذلك كان! ونجد إبراهيم يقول في الجواب:

---

(٩٧) سورة **الأنعام**، الآية ٨٠.

إنّني لا أخاف منهم وليس لديّ أيّ توجّس منهم، فيتّضح الأمر أكثر من إتمام الآيات ومن حديث إبراهيم.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فإنّ الله تعالى ربّ إبراهيم يعلم ويحيط بكلّ شيء. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وقوله ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى التوجّه والالتفات وضرورة الرجوع إلى النفس وكلّها تحت معنًى واحد. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تعني مع كلّ هذا أفلا ترجعون إلى أنفسكم؟ حسنٌ، لحديث إبراهيم مع قومه تتمّةٌ. يقول إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً﴾[٩٨]. وهنا يتّضح بشكلٍ جيّد ما هو نوع البَحث والجدال الذي كان مع إبراهيم، فإبراهيم يستنكف ويرفض أن يخاف ويقول لهم إنّ عليهم أن يخافوا. فكيف أخاف بدون أيّ دليلٍ من الشركاء والأنداد التي جعلتموها لله في الملك والحكومة والقيادة والخلق والأمر، في حين أنّ الله تعالى قد هداني وجعل الأمر بيّنًا واضحًا بالنسبة لي، وأنتم لا تخافون من أنّكم جعلتم شركاء وأندادًا وأربابًا لهذا العالم من دون دليل أو منطق أو جهة، وبدون أن يكون هناك أيّ موجبٌ عقلائيّ، فأنتم الذين ينبغي أن تخافوا لا أنا.

يتّضح من هذا الكلام أنّهم كانوا يقولون لإبراهيم أثناء مباحثته بضرورة أن يخاف، فلماذا أخاف؟ وممَّ أخاف؟ فهل ينبغي أن أخاف من الشركاء الذين لا عقل لهم ولا روح؟ أم أخاف من الشركاء العقلاء للّه؟ أو منهما معًا؟ فلا يُعلم ماذا كانوا يقصدون في كلامهم حول الشركاء.

وفي الإجمال، لقد جعلوا لله تعالى أنواعًا وأقسامًا من الشركاء. فعبدة العجل جعلوا العجل، وعبدة الحجر والخشب جعلوا الحجر والخشب، وعبدة فرعون والنماريد جعلوا فرعون ونمرود. وبشأن التوحيد الذي تحدّثنا عنه يُعلم أنّ كلّ تلك الأشياء: العجل، والحجر، وفرعون، ونمرود، هي وقود النار وحطبها، وكلّهم من ذلك المستوى المنحطّ لا يختلفون فيما بينهم. وعلى

(٩٨) سورة **الأنعام**، الآية ٨١.

كلّ حال، كانوا يقولون لإبراهيم إنّ عليه أن يخاف من شركاء الله، وإذا تساءلنا عن شركاء الله هنا، الشركاء الذين جعلوهم لله، هل هم شركاء الإنس أو الجنّ أو الأحياء أو ذوي العقول وأمثال ذلك؟ فهذا ليس معلومًا.

﴿وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً﴾، فذلك كان بلا حجّة ودليل، والمقصود هو: أنّني كيف أخاف من تلك الأشياء التي جعلتموها في موقع الشراكة لله وأنتم لا تخافون من هذا الشرك الذي افتريتموه بالرغم أنّكم تفتقدون لأيّة حجّةٍ أو برهان.

وفي تتمّة الآية يقول تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فإبراهيم يتساءل، وهو يعلم من الذي يستحقّ الأمن والطمأنينة والفراغ من التشويش والاضطراب؛ هل هو مَن اهتدى؟ أم هو أنتم، أيّها المساكين الذين تفتقدون للحجج والأدلّة في سعيكم وطريقكم الذي اتّخذتموه؟! فأنا قد اتّضح لديّ الأمر. إبراهيم أم أنتم عبدة الأصنام أحقّ بالأمن؟ هذا ما كان يقوله إبراهيم، وفي مجال التوضيح: أنا الذي عرفت الله وعرفت الطريق ببصيرة ووعي؟ أم أنتم أصحاب الظنّ الباطل الفاقدين للحجّة؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فيُعلم ما هي النتيجة، وما هو الجواب، ومَن هو المحكوم عليه بالبقاء في مستنقع الهواجس والخوف والاضطراب، ومَن هو الذي يقع تحت حكم الطمأنينة والنجاة من كلّ هذه المساوئ.

وفي النهاية يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٩٩]، فهذا ما يرتبط بالأمن.

بعد هذا العرض، يأتي دور حصول الثمرة، فماذا يعني ذلك؟ هي البشارة الرابعة التي يشير إليها الباري تعالى. فإنّ من الأمور، التي لو حصل عليها من يسلك الطريق نحو المقصود، لتمكّن بفعلها من التحرّك بصورة أفضل، ولأصبح احتمال وصوله أكبر، بينما لو لم يحصل عليها، فإنّه يصبح أكثر بطئًا، ويزداد احتمال عدم وصوله، هو أن يعلم إذا كان

(٩٩) سورة **الأنعام**، الآية ٨٢.

عمله مثمرًا أم لا. فلو كان يعلم أنّ سعيه يؤدّي إلى نتيجة مثمرة، وعلم أنّ تحرّكه وسعيه وخطواته لن تذهب جفاءً، عندها فإنّ كلّ حركةٍ ستؤدّي إلى إيجاد موجة تدفعه أكثر نحو المقصود. فلو كان يعتقد بذلك، فإنّه سيصبح أسرع في السير والتقدّم ويعمل بصورةٍ أفضل ويقلّ تعبه ويتحرّك براحةٍ أكبر. أمّا إذا لم يعتقد بذلك فواويلاه.

هكذا يرى المؤمن عمله ذا ثمرة، وهذا ما يعلّمه إيّاه **القرآن**. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٠٠]، لا يضيع ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ ومنهَا الكثير من أوّل **القرآن** إلى آخره ما شاء الله. ولقد أتيت بالموارد من سورة **البقرة** وهي الآية ١٤٤ المرتبطة بالقبلة.

في البداية، نتعرّض لتاريخ القبلة في بضع كلمات. عندما كان المسلمون في مكّة يتوجّهون إلى الكعبة حين الصلاة وللعبادة؛ وقبل الهجرة كذلك، وعندما جاؤوا إلى المدينة، كانوا يتوجّهون إلى بيت المقدس - بالطبع كان هذا بأمرٍ من الله - مثلما كان يفعل اليهود. ففي تلك الأيّام، كان يهود المدينة يتوجّهون إلى بيت المقدس في عبادتهم وكذلك المسلمون، ثمّ مرّت مدّة ونزلت الآية التالية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[١٠١]. وعاد المسلمون ليتوجّهوا إلى الكعبة في صلاتهم، وقد ذُكِرَت أبعاد حادثة القبلة هذه في بدايات سورة **البقرة** بالتفصيل لا ضرورة الآن لبيانها، وتصل الآيات إلى سبع أو ثماني أو عشر.

وإحدى هذه الآيات تقول للمؤمنين وللرسول إنّ سبب جعلنا قبلتكم، عند مجيئكم من مكّة ومن بداية نزولكم في المدينة، إلى طرف المقدس هو أنّنا أردنا أن نمتحنكم. فأنتم قبل أن تصبحوا مسلمين، وعندما كنتم في مكّة، كنتم تحترمون الكعبة وتقدّسونها، وبعد أن أصبحتم مسلمين كانت صلاتكم نحو بيت الكعبة في مكّة؛ والآن عندما جئتم إلى المدينة، أردنا أن

(١٠٠) سورة **يوسف**، الآية ٩٠.

(١٠١) سورة **البقرة**، الآية ١٤٤.

ننتزع منكم تلك السنّة التي كان عليها آباؤكم وأجدادكم بصورة مؤقّتة لنرى مدى استعدادكم للتخلّي عن تلك العادات من أجل الله. ففيه نكتةٌ أو قضيّةٌ هي بحدّ ذاتها لا ترتبط ببحثنا، لكنّها قضيّةٌ مهمّة جدًّا. فأنتم إذا كنتم مؤمنين هل أنتم جاهزون للدوس على عادة كان عليها آباؤكم وأجدادكم، وذلك في سبيل الله مع أنّكم قد اعتدتم عليها وتعلّقت قلوبكم بها وكنتم تحترمونها؟ أم لستم كذلك؟

لا ينبغي أن تتصوّروا أنّ الصلوات التي صلّيتموها عندما كنتم في المدينة وفي البدايات وتوجّهتم فيها إلى بيت المقدس أنّها لا شيء وليست مقبولة وأنّ قبلة بيت المقدس هي قبلةٌ باطلة؛ كلّا، ليس صحيحًا، فإنّ ما قمتم به من عمل كلّه مورد قبول في جميع مراتبه. وإنّ مساعيكم وأعمالكم أيّها المؤمنين فيما يتعلّق بالقبلة، وبشكل عامّ، هي مورد التصديق والتأييد والثواب والشكر من قبل الله، ولكنّ هذا التحويل الذي أُمرتم به هو من أجل امتحانكم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾[١٠٢]، الخطاب للنبيّ بشأن بيت المقدس، فمتى نزلت هذه الآية؟ إنّها ترتبط بالوقت الذي تحوّل فيه من بيت المقدس إلى الكعبة في استقبال الصلاة. فالله تعالى يبيّن سرّ جعل هذا التحويل، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، فيتبيّن مَن الذي يتّبع الرسول ومَن الذي يرجع إلى آبائه وأجداده وإلى ماضيه. فذلك كان عبارة عن امتحان ابتلى الله به المسلمين، لم نكن قد عيّنّاها أو جعلناها إلّا لأجل تمييز وتحديد الأتباع الحقيقيّين للنبيّ عن أتباع العادات الجاهليّة. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ فكانت تبدو كبيرةً جدًّا وهامّةً إلّا بالنسبة للذين اهتدوا بهداية الله. فالذين تحقّقت لهم الهداية كان مثل هذا الامتحان لهم عاديًّا، وكانوا يستطيعون أن يتجاوزوه، أمّا الذين لم يستحقّوا الهداية فكانوا على

(١٠٢) سورة **البقرة**، الآية ١٤٣.

العكس من ذلك.

وبعدها تأتي الجملة اللاحقة، ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُضيعَ إيمانَكُم﴾، هي محلّ استدلالنا واستنادنا. فليس الأمر لأجل أن يضيع إيمانكم وعملكم ويصبح باطلًا وبدون أثر؛ فيظنّ من يظنّ أنّ العمل لم يكن له معنًى في مدّة من الزمان وأنّكم لن تتقدّموا. كلّا، فإنّ كلّ خطوة خطوتموها وكلّ حركة قمتم بها قد تقدّمت بكم أيضًا نحو المقصود وقرّبتكم منه وذلك بنفس المقدار الذي يكون على طريق التكامل ويقرّب نحو الهدف، فإيمانكم لا يضيع، إنّ الله بالناس لرؤوفٌ رحيم.

التفتوا! إنّ هذه الآية وعدّة آيات أخرى في **القرآن** تبشّر المؤمنين بهذا الأمر، وتبيّن لهم أنّ أعمالهم وإيمانهم وعقائدهم لا تضيع ولا تفقد أثرها ولا تبطل. فماذا يعني ذلك؟ إنّ كلّ ذلك يدور حول هذه القضيّة وهي أنّ الأمر ينتهي إلى ثمرة ونتيجة. ولو وُجدت هذه الحالة في المؤمنين، فإنّ سلوك طريق الكمال سيكون بالنسبة لهم أسهل، كما هو واضحٌ جدًّا وحتميّ.

سلسلة أدبيّات النهوض

١- العبادة والعبوديّة في الرؤيا والسلوك عند الإمام الخميني	حسن يحيى بدران
٢- عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة	عليّ مهدي زيتون
٣- الشعائر الحسينيّة من المظلوميّة إلى النهوض	شفيق جرادي
٤- على ضفاف الفرات	إبراهيم أمين السيّد
٥- مجتمع المقاومة	نعيم قاسم
٦- الشيخ عبد الحميد بن باديس	إلياس جوادي
٧- الثورة الإسلاميّة في إيران: ظروف النشأة والقيم القياديّة	منوشهر محمّدي
٨- الخطاب عند السيّد حسن نصر الله	أحمد ماجد
٩- الحداثة والمقاومة	طه عبد الرحمن
١٠- الإمام ونهج الاقتدار	شفيق جرادي
١١- قيم النهوض: الحرّيّة - العدالة - الاستقلال الوطنيّ	مرتضى مطهّري
١٢- النهوض الحضاريّ في فكر الإمام موسى الصدر	غسّان فوزي طه

١٣- القدس في الوعي المقاوم	بلال حسن التل
١٤- مباني إنتاج الآخر في العقل الإسرائيليّ	حسين سلامة
١٥- الدولة والمقاومة في ظلّ الأوضاع الدوليّة الراهنة	مجموعة من الباحثين
١٦- المقاومة: جدليّة الحقّ والقوّة	مجموعة من الباحثين
١٧- الشورى ونظم الأمر	عليّ يوسف
١٨- الحرب على غزّة	مجموعة من الباحثين
١٩- المرجعيّة الدينيّة والمقاومة	عبد الساتر الموسوي
٢٠- إشكاليّة الوعي والذاكرة العربيّة	بيان نويهض الحوت
٢١- الرؤية العلميّة لدى الإمام الخامنئي	عبد الله زيعور
٢٢- الفقه السياسيّ في فكر الإمام الخامنئي (حفظه الله)	مجموعة من الباحثين
٢٣- السيادة الشعبيّة الدينيّة	مجموعة من الباحثين
٢٤- الحاكميّة: دراسة في المفهوم وتشكّله	أحمد ماجد
٢٥- صناعة الأمّة الإسلاميّة: الإمام الخامنئي (حفظه الله) وقيادة المشروع الإسلاميّ الاستنهاضيّ	عبّاس نور الدين
٢٦- حقوق الإنسان من وجهة نظر الإمام الخامنئي	منوجهر محمّدي

٢٧- الفكر السياسيّ عند الإمام الخامنئي	مجموعة من الباحثين
٢٨- المسلمون بين المواطنة الدينيّة والمواطنة السياسيّة	عليّ يوسف
٢٩- القدس: الموقعيّة والتاريخ	مجموعة من الباحثين
٣٠- المرأة في فكر الإمام الخامنئي	مجموعة من الباحثين
٣١- عاشوراء: الحدث والمعنى	محمّد مهدي الآصفي
٣٢- السيادة الشعبيّة الدينيّة: إشكاليّة المفهوم	مجموعة من الباحثين
٣٣- السيادة الشعبيّة الدينيّة: معالجات في التطبيق	مجموعة من الباحثين
٣٤- الهواجس الثقافيّة عند الإمام الخامنئي	إعداد مركز صهبا
٣٥- أساس الحكم في الإسلام	محسن الآراكي
٣٦- الإسلام وتهمة الإرهاب	عليّ يوسف
٣٧- خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء	محمّد باقر الصدر
٣٨- وعي المقاومة وقيمها	شفيق جرادي
٣٩- سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ	محسن الآراكي
٤٠- روح التوحيد (رفض عبوديّة غير الله)	الإمام الخامنئي
٤١- دور القرآن في بناء نهضة الأمّة ووحدتها	مجموعة من الباحثين

٤٢- نهضة الذات	محمّد مهدي الآصفي
٤٣-الإيمان ومستلزماته	الإمـام الخـامـنـئـــي